من جواهر يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)ما منزلة سورة يوسف؟

يقول الله "لقد كان في يوسف وإخوته ءايات للسآئلين".

إن الإنسان لا يستطيع أن يقبل أو يفهم أمراً إلا لو كان فيه استعداد أو وعاء لتقبل هذا الأمر. فالامداد بحسب الاستعداد. والاستعداد في أمور العلم يكون بالرغبة في التعلم، ومظهر هذه الرغبة الباطنة هو التساؤل. فعندما يسأل الإنسان يكون قد خلق في قلبه وعاء لتقبل هذه الإجابة عن هذا السؤال. وعندما تريد أن تعلّم أمراً عليك أن تتأكد وجود استعداد في المتلقين، أو أن تخلق فيهم هذا الاستعداد. وهذا يكون بأن تجعلهم يتساءلون عن الأمر.

إن في الإنسان رغبتين فقط لا ثالث لهما، الراحة والكبر، وكل أعمال الإنسان النفسية هي لتحقيق الراحة أو الكبر أو كلاهما. وعندما تريد أن تخلق استعداداً في إنسان فإما أن تشعره أن فهمه لهذا الأمر سيجلب له الراحة، أو أن عدم فهمه له يعني أنه صغير وأنه بفهمه سيكون أكبر.

وهذا هو ما يقوم به الله، فالأول يقول "هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم"، والثاني يقول "هل أتاك حديث موسى" و "أولم تكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل" وكثير غير ذلك.

والمحصلة النهائية للتحفيز العلمي هي أن تجعل الإنسان بنفسه يطرح سؤال. فالسؤال باب الجنة. ومَن سأل أُعطي. "وآتاكم من كل ما سألتموه".

يقول الله في الآية السابعة "لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسآئلين" فتأمل في كلمة "آيات للسآئلين" فجعل الله لكلمة "للسآئلين" مطلقة، ولم يحددها أي لم يحدد أن نوع من السآئلين، أو السآئلين عن ماذا، بل جعلها مطلقة عامة، يدل على أنه لا يوجد سؤال من الأسئلة التي تخص القرآن إلا ولها لدليل في سورة يوسف. ويزيد هذا تأكيداً كون الآية هي الآية السابعة، وسبعة تدل على السبت والكمال، وقمة الفهم، وكل هذا في سورة يوسف.

فسورة يوسف هي القرآن المختصر الجامع، ولب القرآن كله في يوسف، وفيها حلّ كل المسائل التي يعلمها القرآن، وتأويل كل شيء. فلا يوجد سؤال اجتماعي أو نفسي إلا وجوابه في يوسف، جواباً تاماً أو جواباً على هيئة بذرة يجب تنميتها بدراسة أعمق وتبحّر، فيأتي الجواب على شكل أصل معين يمكن الانطلاق منه لفهم الجواب كاملاً.

فحري بأهل القرآن أن يحفظوا سورة يوسف كاملة حتى لا يخلو يومهم كله من التأمل فيها مهما كانت حالهم، قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ورجالاً وركباناً. ويكفي من يريد أن يحفظ عن ظهر قلب

كل القرآن أن يحفظ سورة يوسف، ويجعل باقي القرآن دراسة وتلاوة فقط. وهذه الدراسة والتلاوة المستمرة تجعل القرآن في قلب الإنسان.

ولكن من الذي ستفتح له أبواب خزائن سورة يوسف؟ يقول الله "ءايات للسآئلين"، فمن لا يسأل لا يأخذ، فيشبه الأمر المطر النازل من السماء، ويوجد رجل يريد أن يشرب عن طريق فتح فمه للسماَء، لن يرتوي ولعله تصيبه بضع قطرات، ولكن لو أتى بوعاء فإنه سيمتلئ بالكثير من الماء بقدر وعاءه. فعندما تدرس يوسف اسأل، ثم اسأل، ثم اسأل، واشرب من الرحيق المختوم وتمتع بنعم الله.

...-...

(٢)إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف، هم رموز على العوالم الأربعة، العظيم والآفاق والملكوت والأنفس. فيوسف رمز على النفس الإنسانية منذ كونها في الملكوت إلى نزولها إلى الآفاق حتى تبلغ كمالها بأن تأتي بالملكوت إلى الآفاق "ورفع أبويه على العرش".

فقصة يوسف هي أطوار النفس.

...-...

(٣)ما معنى "الر"؟ ولماذا افتتح بها؟

"ا" هي ألف، وتعني الألفة، فنقول فلان ألف كذا. وتعني الأمر بالتأليف، فنقول ألِّف كذا. وكذلك العدد ألف ويشير إلى "إن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون". وكذلك تشير إلى الرقم واحد الذي يرمز إلى الوحدة العلية والتوحد والفردية.

"ل" هي لام، وتعني الشخص الذي يلوم شخصاً على شيء، وتشير إلى اللأم، من الالتئام، أي عندما يوجد جرح ما، نقول التأم الجرح. وهي عكس "مال" فهي الاستقامة والنفس إذ مال الشخص غير نفسه "جاهدوا بأموالكم وأنفسكم". وتشير إلى لام الغاية والعلّة، كقولنا فعلت كذا لأجل كذا، أو لكونه كذا فعلت كذا.

"ر" هي راء، وتعني الشخص الذي يرى الرؤيا. وتشير إلى الربوبية أي الكمال "أنا ربكم الأعلى" والربوبية التي هي تمام الراحة والكبر فهي بلوغ الإنسان كماله، ولا أحد يبلغ هدفاً إلا إذا رأى الهدف في عقله من قبل.

فحرف "ا" يشير إلى الفردية الأولى "لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة" فالنفس خلقت بمفردها وهذا هو كمالها الأسمى أن تكون متوحدة مستقلة عن التبعية العمياء. وحرف "ل" يشير إلى النقص الذي أصاب النفس عندما نزلت إلى الآفاق وتلبست بالجسم، وأن غايتها هي العودة إلى كمالها الجوهري الفردي الأول عندما كانت في الملكوت، بل أن تبلغ أحسن منه، لأن كمال النفس في الملكوت بديهي إذ لا جسم، ولكن أن تبلغ الكمال مع الجسم فهذا كمال أكمل. وحرف

”ر“ يشير إلى المعرفة بالغاية وجوهر الخلق، وتحقيق هذه المعرفة يعني محطة النهاية في أطوار النفس ”يأبت هذا تأويل رءاي من قبل قد جعلها ربي حقا“ وبعد ذلك تكون قد تمت الحياة في الجسم ولذلك يقول بعدها ”توفني“.

فهذه الأحرف الثلاثة المباركة ”الر“ هي جوهر قصة يوسف كلها، والقرآن كله، أي الحياة كلها من أولها إلى آخرها. ولذلك قال بعدها ”تلك ءايات الكتاب المبين“ ولم يقل ”تلك من ءايات“ فإن كان الذي يفهم سورة يوسف فكأنه فهم القرآن كله، فالذي يفهم ”الر“ فكأنه فهم سورة يوسف كلها. ”الر“ جوهر يوسف.

...-...

(٤)لماذا اختصر القصة في أحرف؟ ولماذا ثلاثة أحرف خاصة؟

الكلام حركة وتفريق، والأصل في الملكوت هو السكينة والوحدة، والكلام دليل وجود نقص، لأن للكلام غاية، ووجود غاية يعني وجود نقص نريد إكماله لتحقيق هذه الغاية، فالكلام نقص. وبما أنه نقص فيجب أن لا نستعمله إلا بقدر الضرورة التي تسد النقص. وكونه اختصر العلم في ثلاثة أحرف هو لكي يفهمنا أنه علينا أن لا نتكلم إلا بقدر الحاجة، وأن يغلب علينا التفكير اللاشعوري، والاتصال الباطني.

وكذلك يعلمنا أن نلخص علمنا وأبحاثنا في كلمات أو أحرف يسهل حفظها على كل أحد، فحتى أشد الناس بلادة لن يعجز عن حفظ ”الر“، وبذلك يكون العلم دائماً فينا عندما نحتاج إلى تذكره أو شرحه. فعلى الذين يطنبون في الحديث والكتابة أن يلخصوا دراساتهم. وهذا التلخيص يخلق في من يقرأه الاستعداد لكي يتبحّر في المطولات، وهذه من سنة التدرج في الترقي. فعلينا أن نبدأ بالإجمال ثم التفصيل.

ويشير إلى سر من أسرار اللسان العربي العزيز، وهو أن الحرف منه يحوي معارف عدة عن طريق جعله لها أبواب في نفسه، فإن كان الحرف وعاء لكنوز، فما بالك بالكلمات والجمل والسور. فلا يوجد في القرآن حرف إلا وفيه علم، ويفتح أبواب العلم، ويشير إلى علم. وكون القرآن الذي تأويله نفس الإنسان يحوي هذا السر، فهذا يعني أن كل فعل من أفعال الإنسان، أو قول، أو إيماءه أو كل ما يتم داخل الإنسان وخارجه يمكن الاستدلال به على ماهية نفس الإنسان، ويمكن بالنظر إلى ما يخرج من الإنسان الاستدلال على باطنه في أكثر الأحوال، ودائماً إذا توفرت معرفة عميقة بكل ما يفعله الإنسان في يومه.

أما لماذا اختار هذه الأحرف الثلاثة، فلأن نفس الإنسان مع الذي يؤثر فيها ثلاثة. فالإنسان قلب وجسم ونفس هي مجمل عمل القلب والجسم. القلب محل الأفكار، والجسم محل الأفعال، والنفس هي محل الشعور الناتج منهما. القلب هو الملكوت، والجسم هو الآفاق، والثالث هو النفس. حرف ”ا“ هو الملكوت، و حرف ”ل“ هو الآفاق لأنه محل تحقيق الغاية والتئام جرح القصور. وحرف ”ر“ هو النفس الكاملة التي بلغت مقام الرب. أما العالم الأول فهو يؤثر فقط في كل الخلق، فهو عالم

الأسماء الحسنى التي هي القوة التي خلقتها النفس المتعالية لكي تمد عوالم الخلق من الأعلى إلى الأسفل. وبحسب استعداد القلب ورغبته يتم امداده بالقوة اللازمة وكذلك في الجسم والنفس. فلم يذكر من العوالم إلا ما يملك الإنسان تغييره. فالإنسان يملك تغيير أفكاره وجسمه ومشاعره.

وحرف "ا" من خصائصه أنه لا يتصل بأي حرف، ولكن يمكن للحروف الاتصال به. وهذه من صفات الملكوت، أنه لا يتصل بالجسم، ولكن الجسم يتصل به، يعني أن عالم الآفاق يجب أن يتعلم من الملكوت، ولكن أهل الملكوت لا يتبعون أهل الأجسام "ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السموات والأرض".

واتصل حرف "ر" بحرف "ل" لأن الكمال الأحسن لا يكون إلا في عالم الآفاق، فالنفس لن تبلغ قمة الكمال إلا عندما تنزل إلى الجسم. وحرف "ر" يشير بهيئته إلى التعمق والحفر، وهذا هو مفتاح الكمال، "وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون" فمن لا يحفر في الأرض لن يرتقي في السماء.

وكون "ل" قبل "ر" يدل على أن معيشة الإنسان الجسمانية يجب أن تتم حتى يستطيع أن يتعمق بحق. وهذا هو سبب إعراض أكثر الناس عن الارتفاع على العرش، إما لانشغالهم الحقيقي بتحصيل المعيشة، أو انشغالهم الوهمي بالمعيشة. وكون "ا" قبل "ل" يدل على أن الحكومة العاقلة هي التي توفر المعيشة الحسنة للناس، كالملك في قصة يوسف. وإلا فهو فرعون بني إسرائيل. وأي حكومة هي إما ملك يوسف أو فرعون بني إسرائيل، ومن لم يوفر المعيشة الحسنة والمعرفة للناس فهو الثاني لا ريب في ذلك.

إذا قدمت حرف في كلمة، ثم كان فهمك للكلمة قبل تقديم الحرف وبعده واحداً فهذا يعني أنك لم تفهم الكلمة. وكذلك إذا غيرت كلمة في آية، ثم كان فهمك للآية قبل التغيير وبعده واحداً فهذا يعني أنك لم تفهم الآية. وقل مثل ذلك في القرآن كله. لكل كلمة حكمة، بل حكم. "كتاب أحكمت آياته".

...-...

(٥)لماذا ذكر "الكتاب المبين" في أول آية من سورة يوسف؟ لأن بداية الإنسانية هي العلم وقراءة الكتب. فبما أن الحياة العليا هي التي يستمد الناس سعادتهم وعظمتهم فيها من العلم، والعلم إنما هو في الكتب، كتاب الآفاق وكتاب الأنفس ثم الكتب التي يدون الناس فيها نتائج تفكيرهم حتى ينتفع بها الذين من بعدهم بتراكم المعرفة.

وكونه وصف الكتاب أول ما وصفه بقوله "المبين" فهذا هو المعيار الذي تقاس به عظمة الكتب. معيار البيان والإبانة. الإبانة عن الحقيقة أو الواقع وأحكام العوالم، ثم البيان اللساني بأن يكون الكلام واضحاً مفهوماً، وأن يكون قابلاً للعقل. إذ الغاية من الكتب هي الكشف عن وجه الحق وليس وضع الحجاب على وجهه. فمن ضعف العقل أن يرمز الإنسان للحقيقة إذ جل الناس حجاب كافي عنها، فهل بعد أن فهمناها نرجع ونرمزها؟

فلماذا استعمل الله الأمثال والرموز إذاً؟ أمثال القرآن ليست لتصعيب الحياة ولكن للتيسير، تيسير الفهم. ثم إن القرآن هو النسخة العربية لكتاب العوالم الأربعة، الآفاق والأنفس والحق والأسماء، فكما أن كتاب العوالم أمثال يجب فك رموزها، فكذلك القرآن. وإن التأمل في كلام الله ليس كالتأمل في كلام البشر، إذ مجرد تركيز العقل على الآية القرآنية يجعل الإنسان يغرق في بحر من النور المتعالي، ويملأ اللاشعور بالنور الإلهي، وليس في مقدور البشر وضع مثل ذلك. وإن القرآن ظاهر في باطن، وباطن في ظاهر، ولكن لا يعرف ذلك إلا من يغوص في باطنه، ولما يغوص إلى نهايته سيرى أن ما فهمه بعد التحليل العميق الذي استغرق صفحات وكتب هو في الحقيقة نفس النص الظاهري للآية، كالدائرة بدايتها هي نهايتها، ونهايتها عين بدايتها.

وقوله عن الكتاب أنه "مبين" يدل على أن الواقع هو الشاهد على صدق فهم القارئ وتفسيره. فليست الأمور بمجرد القدرة الجدلية واللغوية، نهم هذه مهمة، ولكن يجب أن يشهد الآفاق والأنفس على تفسيرك لكتاب الله، وحتى يأتي هذان الشاهدان العدلان، فإن تفسيرك هو دعوى لم يحكم فيها بعد.

وعلى ذلك، فالعلم بالحق إما أن يكون من الكتاب إلى الواعق، أو من الواقع إلى الكتاب. فالذي يقرأ آية في كتاب الله ثم يفهم منها حكماً، هذا الحكم يكون كالنبوة، فهو يتنبأ أن كذا مربوط بكذا، مثل عندما يربط القرآن بين إهلاك القرى والأمراء المترفين الفاسقين، فيصيغ حكمه كقاعدة، ثم إما أن يأتي بأدلة عقلية قاطعة تثبت هذه العلاقة، ولا أرى أن ذلك ممكن إلا لمن تشبع بروح القرآن، أو كانت له معرفة بالتاريخ عميقة حتى يأتي بالشواهد على صحة نبؤته. وإما أن يترك القاعدة للزمن والناس ليعرفوا صحتها من ضعفها. وهذا هو الطريق الأول.

والطريق الثاني هو أن يتساءل عن أمر في الآفاق أو الأنفس، ثم يتأمل ويضع الفروض ويحلل، أو لو كان الله قد وضع عليه يده وسدّد عقله الباطن ليعرف الرأي الأقوى، يضع هذا الرأي، ثم يبحث له عن المقدمات التي تثبته وتكون كالسند له، وبعد أن يفرغ من صياغة القاعدة، فإنه قد يفعل مثل الأول، أو قد ينظر في كتاب الله ليرى هل يشهد له على صحة هذه القاعدة أم لا.

كون الكتاب مبين يلزم أن الحقيقة واقعة مسبقاً. وما مهمة الكتاب إلا ليبين هذه الحقيقة. وهذا يعني أن العالِم لا يخترع العلم، ولكن يكشف عنه. ليس من عمل العلماء أن يتخيلوا ما يجب أن يكون ولكن أن يعرفوا ما هو كائن بالفعل، ثم من جوهر الواقع يستطيعون لو شاءوا أن يبنوا ويغيروا. فمثلاً، عندما يريد العالم أن يضع قيم أخلاقية للنفس الإنسانية، فمهمة العقل الأولى هي أن يعرف جوهر هذه النفس الأصلي، كأن يعرف أنها أنانية تبحث عن العظمة، ثم من هذه الحقيقة يضع النظام الأخلاقي الذي يشاء. وبذلك يخرج من أوهام السفهاء التي تجرّ إلى النفاق وطبيعة الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون. فالواهم يقول "يجب أن تكونوا متواضعين" فلا يسمع له أحد لأنه يأمر بغير ما يأمر الله، ويأتي العالم ويقول "اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً" من لا يريد أن يكون ملكاً؟

ومثلاً، الحقيقة أن حياة الجسم قبل حياة العقل، لأن الجسم إذا مات هل سيفكّر الأموات؟ فالمعيشة قبل المعرفة. فيأتي الواهم إلى العامة التي تشقى لكي تحصل لقمة العيش ولا تكاد تبلغ هذه اللقمة هذه إلا بشق الأنفس، ويعظهم في المعابد عن فضيلة طلب العلم، فهل سيسمع له أحد؟ ولكن لو كان عالماً لسعى أولاً في تيسير المعيشة ثم فليذكر فقط بعظمة العلم وسيرى الناس أحسن استجابة لو كانوا صالحين.

وهكذا في كل أمور النفس والمجتمع يجب أن يبدأ العاقل من الجوهر الواقعي ثم ينطلق ويبدع كما يشاء. فذلك أحرى أن ينفع الناس ويزيد في بناء المعرفة الإنسانية. كم من الواهمين أصبحت كتبهم راسخة في الرفوف، لماذا؟ لأن كتبهم ليس لها هذا الوصف "المبين".

الإبانة عن الواقع بلسان جميل يجعل الكتاب حقاً كتاباً عظيماً.

...-...

(٦)من هم "إنا"؟ الروح الأعلى وجبريل وملائكة التسطير. لو كان أراد المفرد لقال كمال قال في موسى "إنني أنا الله لا إله إلا أنا" فعندما يقول "إنا" يقصد جمع قطعاً. الروح أذِن، وجبريل أعطى، والملائكة نفذوا الأمر في ليلة القدر "تنزل الملائكة والروح" الروح هنا هو القرآن، "وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا" أما الروح الأعلى فيذكر قبل الملائكة كما في يوم الحساب "يوم يقوم الروح والملائكة صفاً".

لماذا سمي الوحي "روح"؟ لأنه قلب الروح الأعلى. وكما أن فهم كتاب إنسان يجعل بين قلبك وقلبه صلة، وإذا فهمت كل كتب إنسان تكون قد اتحدت مع قلبه لو وافق ما يقول هواك، كذلك الأمر في القرآن الذي هو قلب الروح الأعلى بلسان عربي مبين، ففهم القرآن اتصال مع الله، أما الإحاطة بالقرآن فتعني الاتحاد مع الله، أن يتحد قلبك مع قلبه، حتى تعرف الحق بدون أن ترجع إلى كتاب أو أي شيء، وهذا الاتحاد الذي هو الصلاة التامة هو الغاية الكبرى من هذه الحياة العليا. وأي إنسان له غاية غير هذه هو في جهنم بدرجة أو بأخرى. أما الذي جعل الإحاطة بالقرآن عمله الدائم فهذا حقاً خليل الرحمن.

فالقرآن خرج من قلب الله، إلى جبريل، إلى الملائكة، ثم إلينا، فهذا يعني أنه يوجد درجتين قبل الوصول إلى الصلاة التامة، من الظاهر إلى الملائكة، إلى جبريل، ثم إلى الروح الأعلى. وهذه هي دراسة القرآن الحقيقية.

ولكن نتساءل، لماذا يعطينا الله قلبه؟ بما أن الامداد بحسب الاستعداد، فقلت محمد كان مستعداً لقبول قلب الله ولذلك أعطاه الله إياه. فلم يكن في قلب محمد رغبة غير الصلاة، يريد أن يتصل قلبه بالله اتصالاً تاماً حتى يكون الله هو عين قلبه، ومن ثَم كل أفكاره وأعماله ومشاعره. يريد أن يكون الله هو الواقع وحده. وهذا جعل قلبه مستعداً، إذ لم يرض محمد بغير قلب ربه. فلولا قلب محمد لما كان القرآن، ولذلك قال عنه "وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً".

الرغبة في حياة المعرفة هي أول الإنسانية وأول قرار يتخذه العاقل. يتبع ذلك أنه يريد كل المعرفة لأنه جعل رغبته في العظمة في القلب بدل الجسم الضعيف الهالك الفاني، فيصبح يريد قمة المعرفة. وأعلم كائن هو الله، وعلمه هو قلبه، فينتج عن ذلك أن العاقل يريد أن يصبح قلبه كتاب الله، وهنا دور القرآن. القرآن حياة العارفين. القرآن تاج الملوك. ما هي الحياة بغير القرآن؟ مزبلة ألقينا فيها. ما هي الحياة بالقرآن؟ عظمة لامتناهية. أيد الناس دليل وجود الجنة؟ لاشك أنهم لم يعرفوا القرآن بعد.

...-...

(٧)ما معنى "ءايات"؟ الآية هي علامة تدل على شيء. فما معنى "ءايات الله"؟ العلامات التي تدل على الله. ولكن هل هذه العلامة أوضح في ذاتها من الله لكي تكون هي التي تدل عليه؟ إذ بديهة يتم استعمال الواضح المعلوم للوصول إلى الغامض المجهول. فلو كانت الكلمات أوضح وأقوى وجوداً من الله، فلماذا نبحث عن الله أصلاً؟

يقول القرآن "ءايات الله بعد إذ أنزلت إليك" فالآيات كلمات، كلمات القرآن. و"الله" معناه الروح الأعلى، وليس وحدة الوجود، لأن الوجود اللانهائي لا يحتاج إلى شيء ليدل عليه ويكون له آية، إذ هو عين هذه الآية نفسها. فلا يمكن أن توجد آية على شيء إلا لو كان يوجد انفصال عن الشيء. وبديهة لا انفصال في الوجود الواحد المطلق. والقرآن لا يتكلم عن الوجود المطلق، إذ أي كلام عنه هو كفر به في أعمق الدرجات، ومن هنا قلنا أن العشق هو السكوت.

والآن يتبين معنى "ءايات الله" لأنه كما عرفنا أن الكلمة تدل على قلب المتكلم، فآيات الله هي الكلمات العربية التي تدل على جوهر قلب الروح الأعلى. وبما أننا في غفلة بسبب هذا الجسم، فلذلك لكي يحررنا الله من هذا الجسم أنزل لنا كتابه، حتى نتعالى عن عبادة أجسامنا، ونصل إلى الغاية الحقيقية من الخلق، ألا وهي أن تفهم قلوبنا قلب الله ربنا. وكل الخير هو من أبناء هذا الفهم، وكل شر هو بسبب الغفلة عن هذه الغاية.

جوهر قلب الخالق هو كالكلمة، هذه الكلمة هي الطور النهائي للمخلوقات، أي كمالها المقدر لها. والناس تسعى لتعرف ما هي أكمل طريقة لعمل كل شيء، أو أعلى درجة من فهم أسرار الآفاق والأنفس. فهم في الحقيقة يريدون فهم هذه الكلمة، حتى لو لم يقروا بإيمانهم بالخالق، أو كانوا جهلة به. الجوهر واحد، وهو الرغبة في فهم سر الخلق وكماله النهائي في شتى مظاهره النفسية والاجتماعية والسياسية وكل شيء يخص الإنسان بوجه خاص.

ولكن كيف يسعى عامة الناس لذلك؟ بالتكهن. إلا الذين يدرسون كتاب الله فهم وحدهم الذين يستطيعون أن يصلوا إلى هذا الفهم بيقين، لأن كتابه هو آية تدل على هذه الكلمة، هو نفسه يعلم الكمال الأقصا للإنسانية. وعاجلاً أو آجلاً سيصل الناس إلى العمل بما يقول كتاب الله، عاجلاً بدراسته، وآجلاً بتجريب كل الاحتمالات غير ومعاناة الألم من هذه التجارب حتى تتحقق فيهم هذه القناعة. ويوم يفهم أكثر الناس فهذا يوم القيامة الجماعي.

وكونه قال "الر تلك ءآيات" يدل على أنه حتى حروف القرآن فيها نور الأسرار. وكونه اختار اللسان العربي فهذا أيضاً بحث عظيم لاستخراج الحكمة من ذلك.

فإذن القرآن الكريم هو الطريق إلى الكمال بأيسر وأمتع وأيقن طريقة ممكنة.

...-...

(٨)ما الفرق بين قوله "قرءاناً عربياً" وقوله "بلسان عربي"؟ اللسان هو اللغة، ولكن عربي هو طريقة الكتابة. فنلاحظ أن الآيات في طريقة كتابتها تشبه عربات القافلة أو القطار، آية فاصلة رابطة آية فاصلة رابطة آية فاصلة رابطة آية. تشبه عربة رابطة عربة رابطة عربة. وهذا هو سر تسمية اللسان بالعربي، لأنه لا لغو فيه، فكل كلمة عربة تحوي المعاني الكثيرة وتدل على المعاني الكثيرة في ذاتها، وبين كل كلمة وكلمة، وآية وآية يوجد رابط منطقي، والتسلسل في ذكر الكلمات والآيات كذلك مليء بالحكمة.

ولذلك قال "قرءاناً عربياً لعلكم تعقلون" فمعرفة الرابط بين الآية والآية بحر عظيم بنفسه، وهذا يدل على أن سور القرآن والمقاطع التي فيها ليست عشوائية كما يظهر للناظر المتسرع أو الجاهل، ولكن يوجد رابط عميق بين كل آية وآية، وكل مقطع ومقطع، وكذلك بين كلمات الآية الواحدة. فتجد آية أولها في الشرق ووسطها في الغرب وآخرها في مكان ليس له مكان، فيظن الأعمى أن هذا من الفوضى أو عمل بشري ضعيف. ألا ساء ما يحكمون.

وبما أن كل سورة وحدة واحدة لا يمكن تقطيعها، فظهور السور كان سورة سورة. القرآن نزل كله مرة واحدة في رمضان. ولكن إظهار السور من النبي وكتابتها كان سورة سورة من الكوثر حتى البقرة. وعلى ذلك يجب أن يكون التعلّم، سورة سورة عامة. فكثير من الأسئلة التي ترد عليك وأنت تتلو أول السورة ستجد الجواب في نهايتها عليها. فأحسن تلاوة ودراسة هي التي تكون سورة سورة، سورة كاملة.

وبما أن كل سورة مرتبطة برباط جامع السورة التي تليها، فكل السور متصلة ببعضها. وعلى ذلك يكون القرآن كله كلمة واحدة، وبما أن الحروف في الكلمة كلها متصلة أيضاً، فالكلمة حرف واحد. وبما أن الحرف أصوات متصلة، فالقرآن حرف واحد أو صوت واحد. وبما أن الصوت ناتج عن التنفس الداخلي، فالكتاب ما هو إلا نفس من الله، ولذلك قال "والصبح إذا تنفّس" والصبح هو روح الله "أليس الصبح بقريب" "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" فكما أن النفس المتعالية نفسّت عن رغبتها في رؤية نفسها فخلقت العوالم، فكذلك نفّس الروح الأعلى عن رغبته في الامتداد إلى الناس بإنزال القرآن. ولذلك قال "وربك فكبّر" أي اجعله يدخل في كل قلب بنور كلامه. وعندما يصبح كلامي فيك فهذا يعني أني أنا فيك. وهذا معنى عبادة الله، أن تعبّد قلبك ليسكن الله فيه، بالرغبة في الاتحاد به، طلب للراحة والكبر، الناتجة عن الرغبة في الكمال، الذي هو جوهر الخلق كله، الذي هو كذلك لأن النفس المتعالية كمال مطلق، وكون كل كلمة كالعربة التي تحمل فيها أشياء، فإذن لا يوجد كلمة في كتاب الله لا فائدة فيها. فلا يمر العاقل على كلمة ظناً

أنه لا فائدة فيها حتى لو كانت مثل "في" و "إلى". الحكمة في كل كلمة. وهذا من الفرق بين كلام الله وكلام البشر، فالبشر يتكلم بعشر كلمات ليوصل حكمة واحدة، ولكن الله يقول كلمة واحدة فيعلّم عشر حكم.

الإنسان عندما يقول كلمة فإنه في أقصى الحالات يكون في عقله ثلاثة أو أربعة أفكار يريد أن يضمنها هذه الجملة. وهذه مبالغة عندما أقول أربعة أفكار، فالشائع وجود فكرة أو فكرتين. أما سبب ذلك فيعود إلى قوة العقل والعلم يؤثر بحسب سعته. ولذلك كلما زاد العمق في الكلام دل ذلك على عظمة المتكلم.

ولكن عندما نرى أن الله يقول كلمة فيتولّد منها عشرات الأمور فنعلم أنه من قوة عقل متعالي. وصاحب العلم الأوسع يكون كلامه أشمل. فما قدر الله حق قدره من ترك القرآن لغيره وأعرض عنه. هل يترك أحد فيه عقل كلام العلماء من أجل كلام الأطفال السخفاء؟ أهل الدنيا هم الأطفال السخفاء. وأهل الباطن نور عقولهم من نور عقل ربهم. فهم مسدّدين لاشعورياً وشعورياً.

وعلى العالم أن يجعل من الله مثلاً أعلى له، فيكون كلامه حكمة وعمق، خاصة في الكتابة. فلا تكثر حيث لا منفعة. ولا تكرر ما لا يحتاج إلى تكرار، كأن تذكر المألوف الشائع بالبديهة دون أن ترتب على ذلك معرفة جديدة. خلاصة الأمر، كن كالقرآن بكل قوتك.

...-...

(٩)كيف يقول الله "لعلكم تعقلون" وكلمة "لعلكم" احتمالية، أليس الله على يقين تام في فعله المبارك؟ الذي يدرس القرآن سيعقل يقيناً، ولكن الذي لا يريد أن يدرس هل سيعقل؟ لا، ولذلك استعمل "لعلكم" الاحتمالية.

فالاحتمال هو في إرادة الإنسان وليس في ارتباط السبب بالنتيجة. فلا الله سيجبر أحداً على دراسة كتابه، ولا النبي سيكره أحداً حتى يكون من العارفين. وهنا أصل الاحتمال. فإن كان الله لا يكره أحداً لطاعته، فمن هذا الملعون من البشر الذي سيكره الناس على طاعته هو؟

وجه القلب هو المشيئة، ولا يقف أمام الملك إلا جميل الوجه. فتعرف الناس بما يشاؤون وليس دائماً بحسب ما يقولون لأنهم قد يكذبون ويراؤون، ولا بحسب أفعالهم فقد يكونوا تحت إكراه أو إجبار. أما المشيئة فلا تخطئ أبداً في الدلالة على قلب الإنسان. ولذلك يقول الله "من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" عمل بلا مشيئة شخصية مرة هو الذي قيل فيه "هباء منثورا".

وكون الله نفسه بحسب حساب الاحتمالات فيجب علينا أن نقوم بنفس العمل. وليكن عندك جواب جاهز عن الاحتمالات الممكنة سواء في الأفكار أو الأعمال. فاحسب حساب كل شيء. ولو وقع ما توقعت فإنك ستكون جاهز له، ولو لم يقع فإن عقلك سيكون قد توسع بمجرد تفكيرك فيه. فدراسة الاحتمالات الممكنة أمن وسعة.

...-...

(١٠) يقول "إنا أنزلناه قرءانا" ففي كلمة "أنزلناه" ضمير الهاء يعود على الكتاب، ثم قال "قرءانا"، فالكتاب كان في العالم الأعلى، على هيئة ما، ثم جعله الله "قرءانا عربيا"، فمعنى ذلك أن العلم الإلهي كان متواجد في السماء، وما زال دائماً، ولكن هذا التحويل من هيئته في العالم الأعلى لإنزاله بطريقة معينة وإلباسه لسان معين هو ما تم لمحمد النبي. فالسؤال هو هل كان في إمكان الناس الوصول إلى هذا الكتاب الأعلى وهل في إمكانهم ذلك الآن؟

القلب هو الكائن في العالم الأعلى كما أن الجسم هو الكائن في العالم الأدنى. وكلما اشتد اقتراب الناس من الجسم ابتعدوا عن القلب إلا لو كان بأمر القلب الرباني. وإن تفكير الناس دائماً هو لغاية معرفة الأحسن، فالأحسن موجود في مكان ما، أو على الأقل نحن نفترض وجوده ولذلك نفكر في الوصول إليه. وكل الناس تفعل ذلك.

كل ما في الشجرة كان في البذرة ولكن بالقوة، وما إن يزرع الإنسان البذرة ويعرضها للعوامل التي تعمل على نموها، حتى تتفتح الشجرة. كذلك كل الأمور الحسنى التي يريد الناس الوصول إلى معرفتها موجودة في هذا الكتاب العلي. فنظرياً، لو استطاع الإنسان أن يصل إلى هذا الكتاب ويقرأ ما فيه، فإنه سيختصر الطريق الأليم على الناس، بأن يبين لهم الأحسن في الأمور التي يجاهدون في سبيل معرفتها. وينفقون من آلام نفوسهم في التجربة لاكتشاف الأحسن.

فالله منّ على العرب بأن أنزل إليهم هذا الكتاب العلي بلسانهم، وهذا يدل على أحد أمرين، إما أن الله يريد أن يعمل العرب العلماء لنشر اللسان العربي والقرآن في كل مكان، وإما أن الواجب على كل أمة صاحبة لسان أن تجاهد للوصول إلى هذا الكتاب السماوي، أي الساكن في السماء، هذا بالطبع للأمة التي لا تريد أن تقاسي آلام التجربة، أما التي ترغب في المعرفة عن طريق تطور التجربة، فهي وما اختارت. التجربة عذاب يوصل إلى الرحمة، ولكن الكتاب رحمة تقي من آلام التجربة. التجربة تبدأ من أعمال الجسم إلى استنباط الفكر. ولكن الكتاب يبدأ من تكوين القلب الذي يولد أعمال الجسم. وكُلاً وعد الله الحسنى.

بما أن الحق واحد في جوهره، وبما أن الناس لا يزالون مختلفين في ألوانهم وألسنتهم وهي من آيات الله، فلعل الجواب الأول ضعيف. فيظهر أنه على كل أمة أن تعمل بنفسها لكي يلقي الله إليها روحاً من عنده، أو أنه على الربانيين من هذه الأمة القرآنية أن يستنبطوا العلم من كتاب الله، ويضعوه في قواعد نهائية يمكن ترجمتها بسهولة إلى أي لسان في الأرض. إذ العبرة بالثمرة، فلا يوجد أحد يأكل الخشب.

إن هذه حقاً مسألة عظيمة صعبة. فترجمة القرآن إلى لغة أخرى أمر مستحيل، بإجماع المؤمنين وغير المؤمنين، ولعل هذا الاجماع هو من الأمور القليلة التي أجمع عليها كل الناس حقاً وصدقاً، وجعل كل الناس تتعلم العربية مخالف لسنة الخلق في اختلاف الألوان والألسنة، زائداً على أن أبناء العربية أنفسهم تركوها إلى لهجات ولغات أخرى. فلم يبق إلا أن العذاب مكتوب مقدر جبراً على كل الأمم، إذ بغير كتاب الله ليس أمامهم إلا سبيل التجربة الملازمة للعذاب النفسي

والاجتماعي، وإما أن الواجب الإلهي وضع هذه المهمة، مهمة تبيين الكتاب في يد الربانيين من هذه الأمة. وبما أن فرض العذاب بلا اكتساب ليس من الرحمة. فإذن الجواب هو أن مهمة النبيين ملقاة على عاتق علماء القرآن العرب.

فماذا لو ترك العرب القرآن؟ يكون حكمهم هو "فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين".

ولكن ما هو الطريق لقراءة الكتاب المبين مباشرة؟ يقول "إنا أنزلناه" فالطريق هو الصعود. النزول من القلب المجرد إلى الجسم، فالصعود من الجسم إلى القلب المجرد. وهذا يعني أنه على الإنسان أن يجعل جسمه في حالة أقرب ما تكون من الموت، ويكون في تأمل محض عن قلب الخالق، ويكون يعلم أنه إذا لم يرحمه الله فلن يصل إلى الكتاب عنوة "وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك" فمن حقق هذه الثلاثة فإن الله يعده بالروح من عنده بقدرما يحتاج إليه ويشاء ربه.

مَن أعظم، الذي يصعد إلى الكتاب أم الذي ينزل الكتاب إليه؟ الأول يشبه العاشق الذي يبحث ويسعى لمعشوقه، والثاني يشبه الابن المدلل الذي يوفر الله له ما يحتاج إليه. فالسؤال في الحقيقة يعتمد على المعايير التي نختارها. فلو كان مقدار بذل الجهد هو المعيار ولكان الأول أعظم. ولو كان مقدار الراحة المتحقق هو المعيار لكان الثاني هو الأعظم. فالأول أكبر ولكن الثاني أشد راحة، ومعلوم أن الغاية من الكبر هي الراحة. وبذلك يكون الثاني أعظم لأنه وصل إلى النهاية، أو قل جاءت النهاية إليه. فالفرق بينهم كالعبد والملك. العبد يعمل لنفسه ولمالكه، أما الملك فيجلس في بيته ويأتيه ثمرة عمل العبيد إلى مجلسه. فالفرق كما نلاحظ ليس بين أعظم وأحقر، ولكن بين عظيم وأعظم. ويقول الله أنه فضّل المجاهدين على القاعدين.

ولكن بالنسبة لمن نزل عليهم القرآن، يصبح المجاهد هو الذي يتدبر، والقاعد هو الذي يريد أن يسمع فقط للثمرات التي أنتجتها عقول العلماء ويعملوا بحسبها أو لا يعملوا فيكونوا منافقين أو كفار.

فالكتاب المبين هو الذي يبين الطور النهائي الذي سيصل إليه الناس عاجلاً أم آجلاً، والخيار لهم. "وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم".

...-...

(١١)ما معنى "أنزلناه قرءآنا"؟ أي أن الكتاب النوراني المجرد قد ألبسه الله ثوب أمثال القصص وقصصه، لقوله بعدها "نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن" فالقرآن هو القصص. والقصص أمثال لقوله في خاتمة آية تذكر مثل "فاقصص القصص لعلهم يتفكرون".

فإذن الإنزال هو جعل التعاليم المجردة في أمثال القصص، فتكون القصص كالحجاب على الوجه، فيتبين أن معنى "لعلكم تعقلون" هو أن نعرف التعليم من المثل، بأن نعقل المثل بالتعليم الكامن فيه. فالملكوت كله في قصص القرآن.

كمثل المرأة تولد عارية، ثم لحاجات معينة تلبس الثياب، حتى إذا جاء زوجها رفع هذه الثياب وجامعها وأنجب منها ابنه. كذلك النور جعل في القرآن، حتى إذا بعث الإمام الرباني أخرج الله منه المسيح. متعة الأجسام بالجماع الذي هو ارتباط مع الزوج، ومتعة القلوب بالاجتماع مع أهل الملأ الأعلى الذي هو عقل القرآن. فالصعود إلى السماء هو بفك رموز الأمثال. فالعقل هو ملك الموت.

...-...

(١٢)لماذا قال "بما أوحينا إليك هذا القرآن"، ألا يكفي لو كانت "نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك" أو "بما أوحينا إليك القرآن"؟ ما سرّ كلمة "هذا"؟ لو كان لا يوجد إلا قرءان واحد لما احتاج أن يقول "هذا". فمثلاً لو كانت على الطاولة كاسة واحدة، فأنا أقول "أعطني الكاسة". ولكن لو كان يوجد عليها ثلاث كاسات، وأنا أريد كاسة معينة، فأقول "أعطي هذه الكاسة". فحرف الإشارة يستعمل إذا وجد احتمال في سوء فهم القصد بالالتباس بسبب وجود خيارات.

نفهم الجواب من قوله "وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا" فالقرآن هو القصص والأمثال، وهجر الناس لهذا القرآن يعني أنهم تركوا هذه القصص والأمثال. وبما أن الإنسان لا يترك شيء إلا إلى غيره، فمعنى ذلك أنهم هجروا هذه القصص وأخذوا بقصص أخرى. والقصص هي محل استنباط حكم الله وأسراره. وهنا مكمن النبوءة هذه، فإن هذه الأمج بكل فرقها وأحزابها إنما تركت قصص القرآن لقصص أخرى، وأحاديث أخرى، وسِيَر أشخاص آخرين. فكل فرقة تحدث عن رموزها وقادتها وقصص حياتهم، ويجعلون ذلك أساس الدين. كما قال الله تماماً، وصدق الله.

فتعساً لقوم هجروا أحسن القصص بعد إذ أنزلت إليهم، وبناء على ذلك، يعرف المؤمن من المنافق بأخذه بقصص القرآن فقط، واعرفوا المنافق برجوعه إلى قدرة غير الأنبياء "أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده" وبرجوعه إلى كتاب غير الله وحده في دينه.

...-...

(١٣) تنازع الناس في تعريف الغافل عن الله. ويأتي كل حزب بتعريف من أهوائهم لا علاقة له بالواقع الإلهي، حتى إنهم هم أنفسهم لا يعملون به في أكثر الأحوال، وأضلوا الناس بتعريفاتهم الخيالية. أما لو سألنا ربنا ما هو تعريف الغافل، فالجواب بين "وإن كنت من قبله لمن الغافلين". فكل من لا يدرس القرآن ويعقل أمثاله فهو غافل.

...-...

(١٤) ما الفرق بين "إنا" و "نحن"؟ "إنا" تدل على النفوس في العالم الأعلى، "نحن" تدل على النفوس في العالم الأدنى. فالأولى من "الله" والثانية من "الرحمن".

...-...

(١٥) يقول "أنزلناه قرءانا عربياً" فهذه هي الدرجات التي مرّ بها العلم حتى وصل إلينا في الصحف المطهرة. بقوة الأسماء الحسنى، تحرك الكتاب من الملكوت، ثم ألبس ثوب الأمثال الآفاقية "قرءانا"، ثم جعل بلسان عربي "عربياً". فإذن بين هذا المصحف والكتاب الحق حجابين. حجاب اللسان، وحجاب الأمثال.

فلكي يعرف الإنسان الحق بالصحف المطهرة يجب أن يرفع هاذين الحجابين، وهذا هو الجهاد والسعادة. حجاب اللسان وحجاب القرآن. ولذلك قال "وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً" وهذا بالنور المجرد مباشرة، "أو من وراء حجاب" وهذا أمثال الآفاق والأنفس، أي القرآن، "أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء" وهنا صياغته باللسان العربي، إذ "ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم".

ومن هنا نفهم من حكمة اختيار اللسان العربي للقرآن، لأنه أحسن لسان يمكن أن يصف الواقع والأمثال بدقة وعمق يستوعب مالا يمكن أن يستوعبه أي لسان آخر، إذ كل حرف بل كل تشكيلة فيه قد تقلب الأمور رأساً على عقب. فانظر مثلاً إلى الفرق بين قول الناس "الحمد لله رب العالمين" بفتح لام العالمين، وبين كسر اللام لتكون جمع عالِم، فهذا التحريف الذي ارتكبه المغضوب عليهم جعل أمة القرآن أشبه بالأنعام. وهذا كله بسبب فتحة بدل كسرة. فما بالك بتغيير حرف كامل أو كلمة.

وأيضاً نفهم أن مهمة اللسان أن يبين عن الأمور كما هي بدقة، وكلما زادت هذه الدقة كلما ازداد علو اللسان. وهذه هي ثياب أهل الجنة، اللسان والقرآن. أما نعيمهم فهو الحق من ربهم.

فيجب أن نفهم اللسان بتبحر، ويجب أن نعرف مفاتح الغيب، أي كيف نعقل قصص القرآن، فإننا نحتاج إلى مفتاح لكي نفك به الرمز. فيجب أن نعرف مثلاً ما هو رمز يوسف حتى نستطيع أن نعقل القصة. وهكذا في رمز الماء والسماء، وكل الأمثال. فنخلص إلى أنه لكي ينال الإنسان الحياة العليا يجب أن يفهم اللسان، ويجب أن ينال مفاتح الغيب.

...-...

(١٦) يقول عن الغاية من التنزيل الحكيم "لعلكم تعقلون" فما سر ذلك؟ العقل هو ربط الأشياء المنفصلة، أو اكتشاف الرابطة بين أشياء متصلة مسبقاً. وبما أن الحق ثابت لا يتغير، والعوالم وحدة واحدة متدرجة، فلا يوجد انفصال لكي نربط، وإنما العقل هو اكتشاف الرابطة. أن نربط في عقولنا عالم الأنفس بالآفاق وبالملكوت وبالأسماء الحسنى. فنحن بالكتاب نخلق العوالم في أنفسنا كما خلقها الخالق في نفسه. وبذلك نتوحد، لأننا سنعرف ارتباط كل شيء بكل شيء،

وكيفية هذا الارتباط، ووجه العقل فيه. فلن نشعر بآلام الجهل والحيرة السيئة التي هي بذرة كل شر في الناس.

فالتوحيد هو أن تخلق العوالم في نفسك كما هي مخلوقة في الحق. والواسطة لذلك هو الكتاب. فيشبه الأمر مهندس بنى عمارة، ثم أعطى رسوماته وتخطيطاته لابنه وقال له "ابنِ مثل هذه في أرضك". ولذلك قال "وجعلكم ملوكاً" فكما أن الخالق ملك لأنه يحوي كل شيء في نفسه، فكذلك الإنسان العالِم بالقرآن يصبح ملكاً لأنه يعلم كل شيء في قلبه. فليس للإنسان من قيمة إلا بقدر ما يخلق في نفسه "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى".

ومن هنا نفهم معنى خشية الله، فهو يخشى أن تأتي ساعة الرحيل قبل أن يتم البناء، ولذلك "تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم" فيشبه الأمر ملك قال لعبده "ادخل إلى خزانة كنوزي، واجمع ما تشاء وبقدر استطاعتك منها، واعلم أنك ستحيا باقي حياتك بحسب ما تجمع في هذه الفترة فقط، ولن أخبرك عن ساعة انتهاء الفترة" فيصبح العبد يجمع من الكنوز ليل نهار لا يفتر ساعة، حتى إذا نام حلم بطرق جمع أسرع، خشية أن تأتي ساعة الرحيل ويكون جمع أقل مما كان يقدر على جمعه.

أما أهل الغفلة، فهم كالعبد الذي دخل خزانة الملك، فرأي عنباً مخمراً، فشربه، وسكر، ونام نوماً عميقاً، حتى إذا استيقظ وجد الحرس الملكي أمامه يقولون له "انتهى وقتك" فيرجوا ساعة زيادة لكي يجمع، (فيصفعه) الحرس بالأمر الملكي، فيخرج صفر اليدين، فيعيش باقي حياته مفلساً لا بيت له ولا طعام.

اليوم الذي تمر منه ساعة بدون تفكّر في العلم هو يوم تعيس حقاً. يأتي على الناس ساعة يتمنون لو أدخلوا القرآن إلى الحمامات لكي لا يضيعوا هذه الدقائق بلا تعلّم. من لا يفرح بالقرآن فهو غافل عن القرآن. القرآن والفرحة كالشمس ونورها لا يفترقان "والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك" وإنما الترهيب إضاعة العمر في الحياة الدنيا، حياة اللعب والتكاثر والتفاخر بالجسم. كيف يفاخر الناس بما سيأكله الدود، وكيف يهجرون القلب الذي كتب عليه الخلود. حقاً هذا أمر عجيب.

فالعقل أن تعرف معنى كل مثل في كل العوالم. وتعلم تنزل كل نور وظهوره في كل العوالم. فالعقل هو التوحيد.

...-...

هل يمكن أن يوجد إنسان معصوم عن الخطأ؟ يقول "الله ولي الذين ءآمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات" والناس حصراً إما من الذين ءآمنوا أو من الذين كفروا. فلو كان هذا الذي يدعي أنه لا يخطئ من الذين ءآمنوا فالله

يقول "يخرجهم من الظلمات" فهم كانوا في الظلمات، ليس ظلم أو ظلمتين، بل "الظلمات". ولو كان من الذين كفروا فهو صائر إلى الظلمات. فإذن لا يوجد إنسان إلا وكان في الظلمات.

ويبين هذا أكثر قوله "وإن كنت من قبله لمن الغافلين" وقوله عنه "ووجدك ضالاً" فالضال الغافل هل هو معصوم من أول حياته إلى آخرها. موسى قتل نفساً وهرب ولم يرغب في أن يحاكم على فعله واستعان بربه على ذلك. ولا يقال أن موسى قتله خطأ، لأن الله قال "وقتلت نفساً" ولم يقل أي شيء عن خطأ. إبراهيم أشرك في أول أمره "هذا ربي". يونس أعرض عن أمر الله في أول أمره. آدم عصى ربه. ولكن هذا كله بتأثير الجهل الذي يمر فيه كل إنسان حتى يأتيه العلم الإلهي.

ولكن يظهر أن الوحيد الذي لم تذكر عنه أي غلطة هو المسيح، وذلك لأنه رمز النور التام. وفيه دلالة على أن الإنسان إنما تربّى منذ أول عهده على الأمور الثمانية التي ذكرها المسيح أو التسعة، وكان في مجتمع يعلّم ذلك ويعمل به، فيمكن أن يأتي زمن لا يرتكب أحد فيه خطيئة عن عمد، لأن الخطيئة من الحياة الدنيا، فإذا تربّى الإنسان منذ أول أمره على الحياة العليا، فلا خطيئة. وهذا هو يوم القيامة الجماعي.

ما الذي يجعل بعض الأحزاب تزعم العصمة لأئمتها؟ حتى يضمنوا مناصبهم. إذ هم قد جعلوا أنفسهم ممثلين علم الإمام أو النبي أو المسيح وما شابه. وهم يعلمون أنه لا عصمة في حقيقة الأمر منهم يضمنون عدم ظهور معصوم جديد ليحل محل إمامهم الميت الذي نحلوه العصمة، وهم قد جعلوا أنفسهم وسطاء بين الشعب والإمام الميت، كقوم نوح، بل هم قوم نوح، وبذلك يحصلون على ما يشاؤون من مال وجاه وطاعة. أما لو كان الإمام كالبشر الطبيعيين، وإن هو إلا عبد رزقه الله فهماً في كتابه، وهذا يجب أن يسعى له كل بشر كما علمنا، فمن أين سيأكلوا ويشربوا لو ظهر إنسان أعلم من إمامهم، أو أعلم بالعصر الحاضر من إمامهم الميت قبل مئات القرون أو آلافها؟ اقتلوا العصمة تقتلوا الأحزاب.

...-...

(١٨) نلاحظ أن قصة يوسف بدأت برؤيا رآها يوسف، وختمت بتحقق هذه الرؤيا، ورغبة يوسف في الوفاة. ما معنى ذلك؟ معناه أن هذه هي الحياة الحقيقية، أن تكون لك رؤيا وتحيا كل حياتك لتحقيقها.

الموت، موت الجسم، سيأتي للجميع، وكل الناس يعرفون ذلك ويوقنون به. فبما أننا سنموت على كل حال، سواء عشنا الحيوة الدنيا أو الحيوة العليا، فلماذا لا نموت ونحن نعمل على تحقيق رؤيتنا؟ من الأمور التي تجعل الناس عامة تخشى أن تختار أهداف عالية هو خشية وقوع المصائب أو الموت. حسناً، أليس الموت آت سواء كان لنا رؤيا أم لا؟ أليس منه الأحسن إذاً أن نموت على رؤيا. إذ لو حققنا الرؤيا سنفرح الآن ولاحقاً، ولو سعينا لتحقيق الرؤيا فإن حياتنا ستكون بمعنى، ولها طعم، ومملوءة بالحياة، فحتى لو لم نحقق الرؤيا فعلى الأقل سنحيا بفرحة

العمل لغاية اخترناها، وأيضاً "أن ليس للإنسان إلا ما سعى" ولم يقل "إلا ما حقق" فالذي يسعى لأمر يعتبر عند الله وكأنه حققه فعلاً، هذا لو كان يسعى له فعلاً.

فهذه هي بداية الحياة، رؤيا، رؤيا عُليا.

فمن هو الميت؟ الذي يحيا بلا رؤيا. فعندما يقول الله "أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس" هذا يعني أن الإنسان يكون ميت لأنه لا يعرف رؤية الله للحياة، فعندما يفهم الحياة كما يراها الله ذي العرش العظيم، ويصبح يرى كما يرى الله ربه، وتصبح هذه الرؤيا هو رؤيته هو، رؤيته الشخصية. عندها، وعندها فقط يكون قد أصبح حياً. فما هو النور الذي يأتي بعد الحياة؟ "وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس" هو نور العلم الرباني، علم القرآن. ومنا هنا نفهم كون يوسف كان يحيئ بعلم تأويل الأحاديث، إذ هذا هو نور الربانيين.

...-...

(١٩) هل الحياة في البدو خير أم في المدن؟ لقد كان يعقوب في البدو مع أهله. ويوسف في المدينة. وبعد أن أتم يوسف مهمته في المدينة، لاحظ أنه لم يرجع إلى البدو. ويقول للملك "لقد أتممت مهمتي هنا، شكراً، والآن ائذن لي بالعودة إلى أبي وأهلي" ولكن قال يوسف "ائتوني بأهلكم أجمعين" من البدو إلى المدينة. فإذن الحياة في المدينة خير.

ما علاقة هذا بالدين؟ لأن أكثر الناس يظنون أن العلم الرباني والحياة الروحية لا تنفع في المدن، وأن الحياة في الصحراء أو الكهوف أو الأرياف وما أشبه خير من الحياة في المدن للحياة الروحية. ولهذا يعلمنا الله الأحسن هنا ويقول أن الحياة الروحية أحسن من المدن.

لماذا كانت الحياة الروحية خير في المدن؟ هذا سؤال عظيم، فدعونا تنظر فيه بدقة وتحليل.

النفس المتعالية في كل مكان، بل هي كل شيء "هو الأول والآخر والظاهر والباطن" فلا فرق بين أن يكون الجسم في كهف أو في قصر. نور الله "لا شرقية ولا غربية" فمشكاة النبوة أيضاً لا فرق بين أن يكون الجسم هنا أو هناك، إذ هي في كل مكان. فالجسم لا يهم. المهم هو القلب وعالم القلب هو الملكوت وليس الآفاق من حيث الأصل، فإذن ليس المهم أين يكون جسمك، ولكن أين يكون قلبك.

أما الجسم والمعيشة التي يحتاجها، فإن المعيشة تتأمن في المدن أحسن ما البدو. فراحة الجسم أكمل في المدينة. وبما أن راحة الجسم هي الباب لتفرغ الإنسان القلبي لدراسة كتاب الله، فمن هنا كانت الحياة في المدينة أكمل.

ثم إذا تفرغ الناس فعندها كما قال الله "وإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب" حياة الجسم بالراحة. وهي أحسن في المدن، وحياة القلب بالدراسة، ولا يهم مكان الجسم بعد ذلك.

فعلى هذا يجب أن تنظم المدن، على تطوير وسائل انتاج المعيشة حتى تصل إلى الطور الأعلى، وهو أن لا يحتاج الناس أن يعملوا إلا يومين في الأسبوع، من طلوع الشمس إلى الظهيرة. أي نصف فترة بحسب أعمال الأيام كما علمها الله. وأيضاً أن لا يعمل الناس أبداً للمعيشة. فهذه قمة الحياة في المدن. نعم هو هدف قد يكون بعيداً، ولكن كل بعيد بالسعي يقترب. وكلما علا هدفك كلما عظم عملك. ولا يكفر الناس في المدينة بالحياة الدنيا، ويوجهوا كل سعيهم للحياة العليا، فلا، هذا الهدف قريب جداً، بل يتحقق في وقت قليل. تأمل ماذا سيحدث لو أنفقت الأموال التي تصرف والجهود التي تبذل في اللعب بأنواعه التي لا تحصى إلا بشدة، واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد، لو أنفق هذا في تيسير الطعام الكريم واللباس الكريم والمسكن الكريم ونشر المعرفة، ووسائل الصحة.

إن الناس اليوم تنفق عشرة أضعاف، بل سبعين ضعف من الجهد في الحيوة الدنيا، مقارنة بالجهد الذي تحتاجه الحياة الآخرة الأجمل والأكمل. ثم إذا عرضت الحياة الآخرة عليهم قالوا "هل أنت شاعر، ما لك تتحدث بهذه الخيالات والطوباويات التي لا يمكن أن تتحقق؟" هل هؤلاء أغبياء أم ماذا؟ هل بذل جهد أقل من الخيالات؟ هل كف الناس عن أعمال الألم خيالات؟ حسناً، وعمل جهد أعظم في الدنيا، هذا عندهم واقعي وعقلاني. وعمل السوء الذي يعترفون أنه سوء، أيضاً واقعي وعقلاني. ما هذا؟ "وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون" حرام عليكم، كفاية، انظروا إلى حياتكم كيف أصبحت كآبة وغم وحزن وهموم وجهل، وأنتم تعترفون بكل ذلك. هل العذاب واقعي والمعرفة خيالات؟ كما تشاؤون. ولكن حرام عليكم. إذا وقعتم في العذاب ألا تفكروا كيف يمكن أن تخرجوا منه.

الحياة في المدينة خير بشرطين. أن يختار الناس حياة المعرفة والقلب بدل حياة اللهو واللعب. وأن يقيموا حكومة تيسر شؤون المعيشة. ومقياس صلاح الحكومة من فسادها، ليس ماذا يفعل رجال الحكومة في الليل، ولا تاريخ فلان وفلان من الوزراء، ولا كم سيارة يملك الحاكم. ولكن هل المعيشة ميسرة للجميع أم لا.

حياة المعرفة وحكومة المعيشة هي قاعدة المدينة الطيبة.

وتذكر أنه إن كان الوقوع في المرض منطقي، فكذلك علاج المرض منطقي كذلك. ولو كانت حياة اللعب وحكومة الكذب واقعية. فكذلك حياة المعرفة وحكومة المعيشة واقعية كذلك. والله خير وأبقى.

...-...

(٢٠) "وإن كنت من قبله لمن الغافلين" فالنبي كان في غفلة، وبالرغم من ذلك أوحى الله إليه، كيف يكون ذلك، أليس من المفترض أن يكون الإنسان قديساً من أول حياته، ويكون عالماً لكي يوحي الله إليه؟ لا، لأن الذاكر لا يحتاج إلى وحي، إنما الغافل هو الذي يحتاج إليه. فمن يحتاج الدواء، الصحيح أم المريض؟ المرض.

فلا يعتبر غافل إلا من عُرض عليه كتاب الله ثم أعرض هو عنه. هذا هو الغافل السيء. كذلك لا يعتبر كافر من لا يعرف، ولكن من يقضي وقته في اللهو أو من عرضت عليه المعرفة فكذب بها ولم يحللها وينظر فيها بعمق.

فعلى العالم بالكتاب أن لا يلوم الناس على جهلهم ولكن يلوم نفسه على كتمان علمه عنهم. نعم ولكن ماذا لو لم يسمعوا لي؟ لم يسمعوا لك لأنك خالفت سنة الله. فالله يقول أعطي السائل، أي الذي يسألك. والمحروم حاول أن تولد فيه أمراً يجعله يسألك. مثل قوم الله "وهل أتاك حديث موسى" فإن السامع بدافع الكبر سيقول "لا لم يأتيني حديث موسى. فهذا يعني أني ناقص. لا أريد أن أكون ناقصاً. نعم، ما هو حديث موسى؟" وبذلك يتكون فيه الوعاء لتقبل الإجابة. السؤال يخلق الوعاء. أو التساؤل هو الذي يخلق الوعاء الكامل.

مثل العالم الذي لا يحدث الناس بعلمه الذي آتاه الله إياه، ثم يلوم الناس على جهلهم بالله، كمثل الشمس التي تختبئ في ظلمات الفضاء، وتلوم الأرض على ظلامها. أنت نور الأرض، فإن أخفيت نورك فمن أين يأتي النور؟ أفهمت لماذا سمّى الله النبي كما سمى الشمس "وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً" "وجعل الشمس سراجا".

فماذا عن الذي لا يتساءل ولا يريد أن يتساءل؟ دعه في العذاب حتى يشاء الله. "لست عليهم بوكيل" وتذكر "إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء" "ليس عليك هداهم" "لا يضركم من ضل إذا اهتديتم" وتذكر دائماً قول الحق "إنا لله وإنا إليه راجعون" فهذه الكلمة هي سلوى الدعاة إلى العرش.

...-...

(٢١) في رؤيا يوسف قال عن إخوته "إني رأيت أحد عشر كوكباً" كيف يجعل مثل إخوته أنوار سماوية، وهم في هذا الوقت كانوا أهل كيد وشيطان ومؤامرة وقتل وكذب وزور وطمع وأنانية سوء؟ كل هذه الصفات السيئة فيهم، وهو يراهم أنهم "أحد عشر كوكباً"؟ باستثناء أخيه من أبيه وأمه، كانوا شياطين، في الظلمات، فهل يرى الحق أن الظلمات أنوار سماوية عليا كالكواكب؟

هذا دليل على أن كل الناس سيصلوا إلى طور النورانية التامة باختلاف الدرجة. فالذي يبلغ إلى العرش العلي وهو في هذا الجسم أعلى من الذي يلهو ويعلب حتى إذا مات جسمه، بدأ يندم ثم يفعل الله ما يشاء.

فالناس على الأرض في تطور في الصفات. عن طريق التجربة والألم ثم الفهم عاجلاً أم آجلاً.

والحالة النهائية هي أن انلناس سيصلوا إلى السماء. وهنا سر قلوب الربانيين، فهم يعملون ويدعون الناس حتى يخفف عليهم آلام التجارب. ولكن أكثر الناس ترفض طريق الفهم، ويختارون طريق الألم. ولذلك يصبر الرباني لأنه يعلم الطور النهائي. ومن هنا فهو في فرحة دائمة. ويعلم أن الخلق خير.

القلب الحي يرى ثمار الأعمال وعواقبها، فيخطط للوصول إلى الثمار بأحسن الطرق، ويتقي العواقب السيئة المحتملة. التي هي في جوهرها ألم للتعلم. فلا يوجد على الحقيقة إلا الخير. فإما خير محض. أو خير متلبس بالألم وساكن فيه.

بين الأرض الخبيثة والأرض المقدسة بحر عظيم. من الناس من يريد أن يقطعه سباحة، وهذا سيهلك حتماً. ومن الناس من يركب سفينة نوح، أو يسير وراء موسى بعد أن يشق لهم البحر. والخيار لك. الآلام والتفكير فيها هي السباحة المرهقة. دراسة كتاب الله هي طريق الأنبياء.

فالعبرة بالثمرة. والأعمى إذا رءا(رأى) شجرة غير مكتملة قال أن الخالق يعبث. تعالى عن ذلك.

...-...

(٢٢) يقول "كوكبا والشمس والقمر" ما سر هذا التسلسل؟ الكواكب هم العلماء، والشمس هو كتاب الله، والقمر هو قلب العالم الذي يدرس كتاب الله مباشرة بنفسه. وهذا هو تسلسل الترقي. فالإنسان يتعلم من العلماء، ثم من كتاب الله، ثم يصبح هو نفسه نور من أنوار الله، "كوكب دري".

"أحد عشر كوكبا"، وقال في موضع آخر لهؤلاء "ادخلوا من أبواب متفرقة" فعلى الإنسان أن لا يحصر تعلمه من نوع واحد من المفكرين. ولكن يأخذ من كل المشارب، بقدر وسعه، إذ هذا يوسع له نظرته للأمور، ويمكنه من تقليب الوجوه، والتعمق، واستشعار الوحدة الجامعة بين العقول المختلفة. والذي يأخذ من كل الناس هو أكبر الناس.

"والشمس" وهذا القلب الواسع هو الذي يفتح الله له في كتابه، إذ القرآن "لقوم يعلمون" وإنما تأخذ من ماء الله بقدر سعة وعمق وادي قلبك. "أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها" ومن هنا عاب الله على الذين يقولون "ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم" فهؤلاء حصروا الحق في طائفة من الناس. فمعنى كلامهم أن الحق ليس في باقي الطوائف. أي أن باقي الطوائف لا تملك في تعليمها أي وجه للحق. وهنا الكفر، إذ "لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله" فحتى الغبي يملك حقيقة، ولعل هذه الحقيقة هي كونه غبي لأسباب معينة أثرت فيه. فلا يوجد علم لا ينفع كله من أوله إلى آخره بكل ظواهره وكل بواطنه. ففي كل تعليم على الأقل فائدة واحدة مهمة علية، وهذه الفائدة هي وجه الله في هذا التعليم. "والله هو الحق".

"القمر" يجب أن يتعلم كل إنسان من كتاب الله مباشرة. لا تكون عبداً لغير الله. كن ملكاً كما يريد الله لك أن تكون "وجعلكم ملوكاً". بيننا وبين العرش كتاب الله. والعرش رمز الملك. فكل من يسعى إلى العرش ملك. وكذلك كل من لا يسعى إلى العرش عبد. والكتاب العزيز هو الوسيلة، الوسيلة إلى العرش العظيم. فإذن كل من يدرس كتاب الله ملك. وكل من لا يدرسه بنفسه فهو عبد. عبد للشيطان، أو عبد للأحبار والرهبان، أو عبد لفرعون وهامان.

ما أعظم حظ من يفهم كل ما يشتهي فهمه من كتاب الله مباشرة. حقاً إن هذه لغاية عظيمة. أليست هذه هي أمنية كل الأنبياء في كل زمان ومكان؟ ألم يرغبوا كلهم في أن يصل الناس إلى يوم يتعلم فيه كل إنسان من الله مباشرة، بأن تحل روح الله على الجميع؟ فهذا هو روح الله، هذا هو كتاب الله، وهو للجميع الذين يرغبون في الله.

أتعلمون من ألعن الناس عند الله؟ الذين يستعملون آيات القرآن ليقنعوا الناس أن لا يدرسوا القرآن بأنفسهم، وأن يكونوا وسطاء بينهم وبين دين الله. إن الحيوة جنة أو جهنم في نهاية المطاف. فالذين يحولون الجنة إلى جهنم في أعين الناس، ألا يكونوا ألعن الناس.

اعرفوا الدجال الملعون بطلبه الأجر على تعليم دين الله، وهذا الأجر قد يكون مالاً أو شكوراً. وبأن لا يقول لكم "اذهبوا وادرسوا كتاب الله بأنفسكم". "وجعلناهم أئمة يهدون إلى النار" لن ولا يمكن أن يحث الناس أحد على دراسة كتاب الله بنفسه ثم يكون دجالاً أو مغضوباً عليه. إن الشياطين تريد أن تبعد الناس عن الله، ولكن سيخسروا. أما الملائكة فتدعوا إلى الله، وهل الله غير كتابه.

...-...

(٢٢) لاحظ أن يوسف قال أنه رأى مرتين، مرة متعلقة بالأنوار السماوية، ومرة بعدها متعلقة بعلاقة هذه الأنوار به شخصياً. وهذان هما نوعا الرؤية عند كل إنسان. أن يرى نفس الشيء، ثم علاقة الشيء به وما هو النفع الذي يجلبه هذا الشيء له.

فالإنسان إذ هو مدفوع بالرغبة في راحة نفسه وكبر نفسه دائماً، فهو لا يهمه شيء إلا إذا كان هذا الشيء يجلب له نفع بوجه ما. ومن قول يوسف "رأيتهم لي ساجدين" نفهم أن الشيء إذا كان يجلب العظمة والكبر للإنسان، فإن الإنسان يهتم به.

ومن هنا فشل كل التعاليم التي تدعوا الإنسان إلى بذل الجهد السيء ونكران الذات والأنانية. وفي الحقيقة لا يدعوا أحد إلى تعاليم إنكار الذات إلا سفيه يريد أن ينكر الناس ذواتهم حتى يسهل عليه إثبات ذاته هو. فهي من وسائل الراحة كما ترى.

الإنسان من الله، والله كبير فالإنسان يريد أن يكون كبيراً. "رأيتهم لي ساجدين" فإذا أردت أن تقنع أحداً بأمر فعليك أن تظهر له كيف سينفعه هذا الأمر، خاصة في الكبر. وكذلك إذا أردت أن تقنعه بترك أمر بين له كيف سيجلب عليه هذا الأمر الذل والهوان والصغار. وهل كتاب الله نزل إلا لكي يصبح الإنسان عظيماً بحق؟

...-...

(٢٣) ما سر بداية قصة يوسف بكلمة "إذ" التفسيرية"؟ لأن لب الحياة هو تفسيرها. وهل يقوم العلماء بغير تفسير الأمور؟ وهل كلام كل الناس إلا تفسير للأمور أو مبني على تفسير معين للأمور؟

فبما أن البداية عين النهاية، فلذلك بدأت قصة يوسف برمز التفسير لأن حياة العلماء ونهاية سعيهم هو فهم الأمور، أي تفسيرها.

...-...

(٢٤) في البداية كان يوسف عند يعقوب، وفي النهاية جلب يوسف إليه يعقوب. ما معنى ذلك؟ النفس كانت في الملكوت، ثم نزلت إلى الأرض لكي تجلب الملكوت إليها.

فقول يوسف في البدء "إني رأيت" يدل على أن النفس لا تنزل إلى الأرض إلا إذا كانت لها رؤيا معينة تريد تحقيقها.

ويوجد نوعين من النفوس حصراً، يوسف ويونس. يوسف هو النفس التي نزلت وحققت رؤيتها. ويونس هو النفس التي لم ترغب في النزول لإتمام العرش فيه. "وذا النون إذ ذهب مغاضباً" ذهب من أين وإلى أين؟ ذهب من الملكوت إلى الأرض. "فظن أن لن نقدر عليه" كأهل الدنيا "فظن أهلها أنهم قادرون عليها" ثم بعد العذاب النفسي الأليم. والذي يحيط بهم من كل مكان، يختار أن يرجع إلى الله "فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك". وهذه كلمة النور، أي خلاصة النور كله، ولذلك لم يقل بعدها "إني من الظالمين" ولكن "إني كنت من الظالمين".

فماذا عن الذي لا يرجع حتى يموت جسمه؟ هذا هو الذي قيل عنه "خسروا أنفسهم" فلا اعتبار لهم أصلاً في الحيوة ولذلك لا نتحدث عنهم. وهل نأكل الميتة؟

فإذن النفوس نوعان، يوسف ويونس. كلاهما سيصل إلى الله، ولكن منهم من لا يمر بالعذاب ومنهم من يمر. أي ينسى الله ثم يتذكّر ويعمل على الوصول إلى العرش.

يوسف رمز النفس الكاملة. التي أرادت أن تنزل إلى الأرض لكي تؤسس حكم الله فيها. إذ الروح الأعلى هو الملك الحق للعالمين، الأعلى والأدنى. فمن سينزل ليعمل بحكم الله في الأرض، إذ الله لا جسم له وكذلك الملائكة؟ من سيضحي بالراحة في الملكوت لينزل ويبني الملكوت على الأرض؟ هذا هو يوسف ويونس. "إني جاعل في الأرض خليفة" ومن هنا عظمة الإنسان عند أهل السماء كلهم. لأنهم اختاروا أن يدخلوا جهنم ليقلبوها إلى جنة. ولم يتقدم أحد من الملائكة لهذه المهمة. ولذلك سجدوا حباً وتعظيماً لآدم.

ولذلك كانت رؤيا يوسف هي سجود أنوار السماء. أي إنزالها إلى الأرض. أنوار السماء هي كل درجات العلم في الملكوت. وسجودها هو نزولها. فكل إنسان ينزل إلى الأرض لهذه الرؤيا. ولكن منهم من يذكر ومنهم من ينسى. ولا قوة إلا بالله.

...-...

(٢٥) ما هي العقبات التي تقف في وجه تحقيق الناس لرؤيتهم ؟ ثلاث عقبات، "اقتلوا يوسف"، "اطرحوه أرضاً"، و "ألقوه في غيابت الجب".

"اقتلوا يوسف" أي اجعلوه يكفر بالآخرة، ويكون من أهل الدنيا. أهل اللعب والتكاثر في الأموال. "اطرحوه أرضاً" إذا لم يعبد الدنيا، فحسناً، اجعلوه من أهل الآخرة ولكن اشغلوه بالمعيشة، صعّبوا عليه معيشته حتى لا يتفرغ إلى كتاب الله أصلاً. ثم إذا اعتقد أن الدنيا باطل، وتيسرت له معيشته لأي سبب كان، سواء أنه من أبناء الأغنياء أو أي شيء، تبقى حيلة واحدة، وما أمكرها من حيلة، وهي "ألقوه في غيابت الجب" أي عدم رؤية شيء إلا الوجود اللانهائى المتعالي عن الزوجية، ورؤية أن هذه هي الحقيقة لا غير. وفي هذه وقع أكثر المؤمنين.

والحيلة هي هذه، لو اعتقد الناس بوحدة الوجود المتعالي عن الزوجية، فعندها يصبح النور والظلام واحد، بل كلاهما وهم. ولن تجد هؤلاء إلا من أهل الظلام في الغالب، ولذلك بعد أن ألقي يوسف في غيابت الجب، كيف خرج منه؟ خرج منه عبداً لبشر. وهكذا حال هؤلاء الذين يعتقدون بالوحدة فوق الزوجية، لا يبالون بشيء من البناء. ولذلك تراهم من أهل الشعر.

ولكن أليس الوجود المطلق واحد متعالي عن الزوجية حقاً، فأين الكذب؟ لا يوجد كذب في حقيقة الوجود، ولكن الكذب هو في نفي الزوجية تحققاً. الوجود لا كلام فيه ولا عنه. فهؤلاء لو كانوا حقاً من أهله لما تكلموا بحرف عنه. ولما ألّفوا الكتب. ولا شيء. لأن أي وصف له يساوي عدم وصفه. إذ هو كل شيء.

ثم إن النور والظلام حقيقة واقعة، فحتى هذا المتأله لو جاع لذهب وأكل. ولو انطفأ المصباح لقام إليه ليصلحه. وهو نفسه يرى أمور أنها خير وأخرى أنها شر. قليلاً أو كثيراً. الزوجية حقيقة واقعة. والوجود اللانهائي لا تحتاج إلى أذكار لتصل إليه، ولا إلى خلوات لتشاهده، ولا إلى رقصات لتتحد به. هو هو، ووهو أنت. فلا تقع علين إلا عليه، بل هو عين العين.

ولا يصح التفكير في الوجود المطلق جملة وتفصيلاً. إذ التفكير عقل، والعقل زوجية. والتفكير يكون بغاية الفهم، والفهم لا يكون إلا للغامض، والوجود أبين شيء، إذ هو كل شيء.

لا يمكن أن تكون الحياة إلا بالنور. وكل إنسان يعلم ذلك، سواء أقر به أو لم يقر به، أليس يسعى لأمور ويتجنب أمور؟ فلو كان كل شيء واحد فلماذا يرفض شيء ويتقبلّ شيء آخر؟

وبما أن يوسف خرج من الجب، وبلغ الغاية، فالمتألهين هم أقرب الناس ليكونوا من النبيين. وهم في الطور الأخير في الترقي قبل الفهم. ولا يصح أن يسمي أحد الوجود اللانهائي بالحق، إذ الحق شيء والباطل شيء ضده، والوجود اللانهائي لا ضد له. والعدم ليس شيء. الحق هو الملكوت، والباطل هو الدنيا.

فهذه هي النجاة وبلوغ العرش، الكفر بالدنيا، وتيسير المعيشة وتقديرها وعدم الانشغال بها إلا بقدر الحاجة، ومعرفة أن الوجود اللانهائى هو كل شيء وهو خالق كل شيء من علمه، وأن الملكوت هو النور الذي نزلنا إلى الأرض للحكم به.

...-...

(٢٦) لقد قال إخوة يوسف بعد أن ظهر لهم أن أخوهم قد سرق "إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل" فما هذا الذي سرقه يوسف من قبل حسب ما يرى الإخوة؟

السرقة هي الأخذ بغير وجه حق. والإخوة قالوا "اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم" فالذي سرقه يوسف هو وجه الأب. كيف؟ يعتقدو،ن أن يوسف اختلق الرؤيا التي قصها على أبيه حتى يجعل أبيه يعتقد أنه الذي سيتم الله به النعمة على آل يعقوب. فهم يرون أن يوسف سرق اهتمام يعقوب بإختلاقه لهذه الرؤيا. ولذلك ما إن تحققت الرؤيا قال يوسف لهم "يآبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً".

ومن هنا نفهم سر كره الإخوة ليوسف، فهو ليس كره أعمى لا سبب له، ولكن له سبب مثل أي شعور آخر. وحتى العقاب الذي قرروا أن ينزلوه بيوسف كان في نظرهم عقاب عادل جزاء للكذب الذي قام به في نظرهم. فالفهم هو أنه لا يوجد إنسان يشعر أو يعمل إلا بناءً على فكرة ورؤية. فالذي يريد أن يغير أعمال الناس ومشاعرهم بدون أن يفهم أفكارهم التي ولدت هذه الأعمال والمشاعر، هو حقاً سفيه يضيع وقته ووقت الناس معه. فمجرد النصح والوعظ غباء ما لم يقترن بفهم الأفكار الشعورية واللاشعورية. والأفكار اللاشعورية أقوى بألف مرة من الأفكار الواعية.

ونفهم أيضاً سبب قولهم "اقتلوا يوسف" في أول الأمر. لأنهم أرادوا بذلك إثبات كذبه في الرؤيا. إذ لو كان الله هو الذي أوحى إليه بالرؤيا حقاً، إذاً لوجب أن تتم إذ وعد الله حق. فإذا قتل يوسف فهو كاذب. وبذلك يكون مستحق للقتل لكذبه على الله وعلى أبيه. وكذلك في الحكمين الآخرين.

فنتعلم من هذا أن لكل دعوى برهان يؤيدها، وأيضاً برهان يثبت خطأها. فالدعوى فرضية يمكن إثبات بطلانها بدليل مستمد من ذات الدعوى. فإذا ادعى أحد أمرا ما، فننظر في دعواه، ونحللها، ونرى ما هو الأمر الذي إذا تحقق أظهر أن الدعوى خاطئة. وهذا أسهل طريق لرد ودحض الدعوى. وهذا ما يقوم به العلماء، وهو ما قام به اليهود عندما يقولون "راعنا" إذ لو كان جاء بالدين الكامل فلا يمكن أن ينقص شيء من أحكامه.

ويظهر أيضاً أن السرقة الحقيقية هي أن يدعي الإنسان أنه يمثل الله وهو في الحقيقة كاذب. حتى لو كان يعتقد أنه صادق. فهؤلاء الذين يدعون أنهم أهل القرآن ويجعلون البشر مساوين لرب العالمين، سواء كان هذا البشر نبي أو ولي أو شقي لا يهم. أي مساواة لبشر برب العالمين شرك في جهنم. والذين يجعلون الكتب مع كتاب الله فهم من هؤلاء حتماً، بل هم هؤلاء على التحقيق.

فما معنى قطع يد السارق هنا؟ معناه إثبات الكذب عليه، فهؤلاء الذين يسرقون كتاب الله يجب أ , تقطع أيديهم، بل هي مقطوعة فعلاً وما علينا إلا أن نظهر أنهم في الواقع لا علاقة لهم بكتاب الله. إنما هم من الأحزاب. وبذلك تنقطع يده عن الامتداد إلى كتاب الله وزعم أنه من أوليائه. وهكذا في كل سرقة.

وبذلك نفهم رد يوسف على إخوته ودعواهم بقوله في سره "أنتم شرّ مكانا" إذ هم الذين اختلقوا على أبيهم عندما قالوا عن يوسف أنه "أكله الذئب". فهم لم يكذبوا بالكلام فقط كيوسف في نظرهم، ولكن بالكلام وبالفعل، فهم شر مكاناً منه على فرض صحة كلامهم.

فعلى الإنسان أن لا يستعجل في الحكم على الأمور حتى تظهر له بينة واضحة. ولعلك تسأل، إلى متى أنتظر ظهور البينة؟ أقول، لعلها لا تظهر إلا بعد سنوات كما في قصة يوسف. فبكل بساطة، انظر هل يعنيك الأمر أم أنه من قبيل الترف وتضييع الوقت ورغبات الدنيا؟ إننا لم ننزل إلى الأرض لكي يخل لنا وجه فلان، ولا لكي ننال إعجاب فلان. نزلنا لنصل إلى العرش. فهل ما تريد أن تحكم عليه يخدم غايتك أم لا. بعد أن تقرر في هذا، ستعرف في أي القضايا تنظر وفي أيها متى تحكم وبم تحكم، وعن أي القضايا تعرض.

وتذكر أن ليس كل إنسان كيوسف سيغفرون لك الحكم السيء عليهم. فاحذر.

في أمر المعيشة لا نحتاج إلى إصدار أحكام على أخلاق الناس الباطنية وما أشبه، إذ المعيشة عمل. وفي أمر المعرفة لا يكون حكم العاقل إلا بالبينة. فاحكم بالبينة أو الزم ذكر الله أي اصمت.

...-...

(٢٧) ما هو القلب الميت؟ يقول "وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا. وهم لا يشعرون" فكما أن الجسم الميت هو الذي لا يشعر بالأجسام، فكذلك القلب الميت هو الذي لا يشعر بالقلوب.

...-...

(٢٨) لاحظ أن يوسف كان غريباً في المدينة، تمام الغربة ولا يعرف أحداً فيها، وهو فوق ذلك عبد. ولاحظ كيف أنه ارتقى ليصبح العزيز. على ماذا يدل هذا؟ يدل على أن الإنسان قد يصبح وزيراً في بلاد الغربة لا أكثر إذا لم يعتمد إلا على نفسه. فإذا أراد أن يصبح ملكاً فعليه أن يستعين بأهله. ولذلك بعد أن أصبح يوسف العزيز عمل على أن يصبح ملكاً فقال "ائتوني بأهلكم أجمعين".

ولذلك استضعف فرعون بني إسرائيل بعد ذلك، إذ إنهم كانوا لا يقرّون بولاية فرعون، وكانوا يعملون على أن يخرج منهم من يتولى أمرهم بهدى الله وحكمه. ولذلك فرحوا عندما هلك يوسف، أي فرعون وآله، إذ قالوا "لن يبعث الله من بعده رسولاً".

فنتسائل، لماذا أراد يوسف أن يكون ملكاً، فما الفرق بينه وبين فرعون إذاً؟ أراد أن يكون ملكاً حتى يجعل كل الناس ملوك. أما فرعون فيريد أن يكون ملكاً وحداً. ولذلك لما جاوز موسى البحر قال لبني إسرائيل "اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً" ولم يقل "وجعل منكم ملوكاً" ولم يقل "سيجعل منكم ملوكا" ولكن قال الحق "وجعلكم ملوكا" كلكم ملوك.

كيف يستعبد فرعون الناس؟ بإمساكهم من عصب المعيشة، ونشر الفرقة. ولذلك الحكومة الحق تيسر المعيشة وتنشر المعيشة وتنشر المعرفة ولا تجعل عليها أي رقابة، حتى لو أراد الأعداء أن ينشروا فكرهم، فلهم ذلك، إذ النور لا يخشى من الظلمات، الظلمات هي التي تخشى من النور لأنه يمحقها. فإذا وجدت من يخشى من المعرفة والأفكار فاعلم يقيناً أنه شقي جبار. وأما يوسف فيعلم كيف يوزع المعيشة على الكل، "اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم".

ولذلك لم يقل يوسف في النهاية "ربي قد آتيتني الملك" ولكن "من الملك". فالجيل الذي يزرع لا يعني أنه نفسه الجيل الذي يحصد. واستعمال النصر سبب فشل أكثر الخطط، وسطحية أكثر الأفكار. يقول الله في صحف إبراهيم "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى" ولم يقل "إلا ما حقق" لأن الذي يسعى حقاً للشيء يعتبر عند الله وكأنه حققه. فلماذا العجلة؟ ليس الصبر هو الذل ولكن انتظار الثمرة، انتظار ظهور الثمرة بحسب سنة الله ومتى يشاء هو وليس متى تشاء أنت، لأنك لو أردت أن تغير سنة الله وتستعجل الثمرة فإنك ستفشل حتماً كما فشل الذين من قبلك. "ولن تجد لسنت الله تبديلا".

من عمل في السياسة لغير إقامة مجتمع المعرفة أكبّه الله على وجهه في الدنيا والآخرة وبعد أن يموت سيرى باب السماء موصداً في وجهه حتى إنه سيتمنى لو يلقى في بركان وهوحي. "إنا لله وإنا إليه راجعون".

...-...

(٢٩) في قصة يوسف أربع رؤى، رؤيا يوسف والمفسّر يعقوب. ورؤيا صاحبي السجن والمفسّر يوسف. ورؤيا الملك والمفسّر يوسف. ما معنى ذلك؟ هذا يدل على أن الرباني يتعلم من تجاربه الشخصية ويكوّن علمه من تجاربه. وأن الرباني يعصر كل تعليم حتى يستنبط منه كل ما فيه. وأن الرباني يأخذ ليعطي أكثر مما أخذ. وأن الرباني لا يكتم علمه عن أحد، سواء كان مجرماً حقيراً مسجوناً، أو ملكاً عاقلاً مرفوعاً.

فالرباني يرى حياته كتاب، وكل يوم يمر فيه هو صفحة جديدة عليه دراستها. فنحن لا نعلم حقيقة ما يجري مع الناس حتى نعتمد على قصصهم وتحليل شخصياتهم في استنباط أحكام الناس والمجتمع. ولكن نحن نعلم يقينا ما يجري فينا ومعنا. والنفوس جمع نفس. فإذا فهمت نفسك فهمت غيرك. إذا فهمت نفسك بعمق. فلو درست تأويل يعقوب لرؤيا يوسف فستجد أن كل ما قاله يوسف بعد ذلك مبني على ما قاله يعقوب. فتفسير يوسف للرؤى مبني على القواعد التي تعلمها من تجربته مع أبيه في التفسير. وانظر كيف استفاد كل حياته من هذه التجربة.

والرباني لا يكتم العلم أبداً. ولا يوجد شيء اسمه أسرار لا تعطى لأحد. كل هذا دجل وصاحبه ملعون عند الله ويلعنه اللاعنون. إن الله أمر بإنفاق رزق السر والعلانية. وإنما ينجذب الناس إلى الله عندما يفهمون الأسرار. ولكن فهم الناس للأسرار يجعلهم أرار، وهذا لا يقع في مصالح

وأولويات الشقي الجبار. ولهذا قص الله علينا كيف أعطى يوسف العلم للمساجين والملوك. بل إنه أعطى المساجين أكثر مما أعطى الملك. إذ المسجون هو الذي يحتاج الحرية.

العلم، سره وعلانيته، باطنه وظاهره، للجميع بلا استثناء. كل من يرغب يأخذ. ولا يعبس في وجه الأعمى أيها العالم. لأنك كنت أعمى في يوم من الأيام. فلماذا تقول "هذا لن يفهم" ألم تكن مثله في يوم من الأيام؟ "قتل إنسان ما أكفره من أي شيء خلقه" فكما خلقك الله فكذلك سيخلقه. "وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى" أنت عليك أن تعطي والله عليه أن يخلق. وشكر العلم إنفاقه. "ولئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم" فأنت تعلم ماذا سيحل بالكافرين الذين يكتمون علم الله بعد إذ أنزله.

الغاية هي أن يصل الجميع إلى العرش، فكيف يكتم العالم؟ صفة الكتمان وخلق القرآن ضدان لا يجتمعان.

...-...

(٣٠) الصادق لا يكثر الكلام فوق الحاجة. "هي راودتني عن نفسي".

...-...

(٣١) "ودخل معه السجن فتيان" فلا يستطيع أحد أن يفسّر رؤيا إنسان إلا إذا كان يعرف من هو هذا الإنسان جيداً. لاحظ أن في القرآن كله ست رؤى، يوسف، وصاحبي السجن والملك، وإبراهيم ومحمد. والمفسّرون أربعة، يعقوب، ويوسف، وإسحاق، والله. وكل مفسر كان يعرف الشخص الذي يفسّر له جيداً< على ماذا يدل هذا؟

لأن الرمز يختلف معناه باختلاف مَن رآه، فلذلك يجب أن تعرف ماذا يعني الرمز لهذا الشخص. إلى هذه الدرجة يجب أن تكون عالماً بالشخص الذي ستفسّره له حلمه.

فمثلاً الشمس قد تعني النبوة عند شخص يسعى لها، وتعني الأب عند من يرى أباه كالشمس في رعايته له، وتعني الله عند من يعبد الشمس، وتعني المستحيل عند من يرى أن الشمس رمز العالي الذي لا يدرك. وهكذا الرمز الواحد له معاني بقدر ما تحوي عقول من رسمت عقولهم الباطنية هذه الرموز في مخيلتهم.

اعرف الحالم لكي تفهم الحلم. والحلم باب إلى أعماق الحالم البعيدة.

...-...

(٣٢) لاحظ أن يوسف كان مرتفعاً عند يعقوب ثم هبط إلى العبودية. ثم صعد إلى بيت العزيز ثم هبط إلى السجن. ثم ارتفع إلى الملك ولم يهبط بعدها أبداً. فالله قبل أن يجتبي رسولاً له يبتليه بأمرين، العبودية وعلاجها حفظ الوصايا العشر. والسجن وعلاجه دراسة كتاب الله والدعوة إليه.

بعد ذلك يصل إلى طور "فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين" من هو المكين الأمين؟ هو جبريل رسول الله. "ذو مرة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين".

وبعد الوصول إلى رتبة تكليم الله، عندها "قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم" الأرض هي كتاب الله. لقوله "ثم أورثنا الكتاب" و "إن الأرض يرثها". والخزآئن هي الآيات لقوله "أم عندهم خزآئن رحمة ربك" ورحمة الله هي كتابه "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة".

ومن هو العزيز؟ "ولله العزة ولرسوله" فهذه الدرجة هي أن يهب الله قوة النور لكي يرى كل ما في كتابه من علم. ويستطيع أن يفهم كل ما يشتهي أن يفهمه من أمور. فيرى كل شئ ويشهد على كل شئ. ولذلك قال في هؤلاء "قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب" ولم يقل "من علم الكتاب" و لا "علم من الكتاب" بل "علم الكتاب" كل الكتاب. وهذا هو الطور الأعلى. بلغنا الله إياه جميعاً برحمته.

ولذلك قال بعدها "وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء".

...-...

(٣٣) ما هو العرفان التام؟ يقول "وجآء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون" كيف استطاع أن يعرفهم بالرغم من مرور السنين وتبدل الأشكال؟ هذا هو العرفان. هو معرفة الجوهر في كل مظاهره. وهذه هي درجة "ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله. إن الله واسع عليم".

أن ترى وجه الله في كل شيء. وأن تعرف درجات العوالم الأربعة، الأسماء الحسنى، الملكوت، الأنفس، الآفاق. وتعرف تدرج ظهور القوة وكل مظاهرها. فتعلم كل ما في العوالم الثلاثة بقوة أي اسم يثبت. وبقوة أي اسم ينمو. وبقوة أي اسم يهلك. كل ما تراه معبر إلى الله. هذا هو العرفان الذي هو ضد الكفران "فلا كفران لسعيه".

القرآن جنة العرفان.

...-...

(٣٤) "قالوا يأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه" هذا يدل على أن الأحكام القضائية ليست مبنية على الردع والزجر والشدة لنفسها، ولكن القصد منها علاج المجرم. الذي يرتكب الجرم كالمريض، فهل إذا مرض إنسان نشهر به ونلعنه ونوقع عليه من الأدوية ما يجعل بقية الناس ترتدع عن الوقوع في هذا المرض؟ هذه سخافة أليس كذلك؟

لماذا إذا مرض جسم إنسان حنّ عليه الناس، ولكن إذا مرض قلبه لعنوه وكرهوه؟ لعلك تقول، لأن مرض الجسم ليس باختياره. أقول، بل إننا نعطف عليه حتى لو كان باختياره كالتدخين والسمنة. لا، ليس هذا هو الجواب. الجواب لأننا نجد شيئاً من الكبر عندما يدان قلب إنسان ولا يدين أحد

قلوبنا. هؤلاء القضاة الدنيويين، بدل أن يكونوا أطباء للقلوب أصبحوا جبابرة لا علم ولا رحمة فيهم. من لا صبر له على العمل فليدعه لغيره إن كان حقاً من المؤمنين.

إن العبرة لو كانت بتعذيب المجرم وإذلاله لرضي يوسف بأخذ أحد الإخوة مكان السارق، ولكن ماذا فعل؟ أخذ من سرق، أي المجرم. فهل إذا أصاب الإنسان مرض في جسمه، كان العلاج مؤلماً، فجاء أحد إخوة المريض وقال للطبيب "إن أخي لن يتحمل العلاج، فأعطني أنا الدواء لكي آخذه عنه" هل يرضى الطبيب؟ بديهة لا يرضى. لا فائدة في الدواء إلا إن أخذه من عنده الداء. وكذلك القضاء. الحكم يجب أن يكون وصفة طبية للقلب. فمن لا يفهم النفس الإنسانية كيف يقضي بين الناس؟

إن المجرم يأتي بجرم بسيط، فيحكم عليه الجهلة بحكم يضاعف له المرض، حتى إنه يدخل السجن بمرض فيخرج بألف مرض. لن يصلح مجتمع لا يفهم فيه الناس أن الحكم وصفة طبية هدفها علاج الفكرة السيئة التي في المجرم. ولو حكمنا على كل صاحب فكرة سيئة كما نحكم على المجرمين فلن يبقى أحد خارج السجون. ولكن نحن نشكر الله على ستره. ولا نبالي بما يقع للمسكين الذي ألقي القبض عليه بسبب فكرته التي غالباً، بل لعله دائماً لا علاقة له لها، فرضتها عليه ظروفه الأسرية والاجتماعية والدينية.

إن المجتمعات الدنيوية تخلق المجرم ثم تلعنه. وهذا حقاً أمر عجيب. القضاة أطباء السلام.

...-...

(٣٥) ما هو الدين؟ "ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله" نظام الحكم هو الدين. فكل من له نظام حكم مبني على غير أمر الملك الحقيقي، الله تعالى، فهو مشرك. فكيف عمل يوسف عند مشرك؟ لقد كان يعمل للناس، ولم يكن ينفذ حكم مخالف لحكم الله. وهذا ما تعلمه الآية المباركة. كن معهم ما داموا مع الله، فإن فارقوه فارقهم.

...-...

(٣٦) من تعلق بغير الله الحق الحي فقد ألقى بنفسه في جهنم. انظر إلى يعقوب، علّق نفسه بيوسف فعاش كل حياته في الحزن والبكاء. النبي إذا تعلق بنبي صار في العذاب، فما بالك بالعامّي؟ لا تعلق قلبك بغير الحي الذي لا يموت والحاضر الذي لا يغيب والذي لا يسألك رزقاً بل هو يرزقك.

...-...

(٣٧) من اتبع القرآن على عمى فهو أعمى بامتياز. لا يعرف القرآن غير الاتباع على بصيرة. ومن فهم الأمر فهو ليس بمتبع ولكن ملك. "وجعلكم ملوكاً".

...-...

(٣٨) "قالوا يأيها العزيز. إن له أباً شيخاً كبيراً. فخذ أحدنا مكانه. إنا نراك من المحسنين"
العقاب على الجرائم، ما غايته؟ غايته إصلاح المجرم.

لو كانت الغاية من العقوبة هي "ردع المجتمع" لقبل يوسف أن يأخذ أحد الإخوة، إذ ب ذلك كان الناس سيرون العقوبة التي حلت بمن يظنون أنه السارق. ولكن رفض يوسف دليل على أن معاملة المجرم يجب أن تكون كمعاملة المريض. انظر كيف يعامل الناس المريض. كلما زاد مرضه كلما زادت شفقة الناس عليه ورحمتهم به.

وعلى هذا يجب أن يرحم المجرم. ويجب أن نوفر سبل الوقاية من الإجرام كما نوفر سبل الوقاية من الأمراض. الجرم مرض اجتماعي، والمرض جرم جسمي. وكما أننا نتعلم أسباب الأمراض لكي نتقيها، فكذلك يجب أن نتعلم أسباب الإجرام لكي نصلحها.

لا يقدم أحد على جرم إلا عن اضطرار نفسي. يوجد أفكار في عقله أو ظروف في معيشته هي التي جبرته على ارتكاب الجرم. وأكثر الناس لا يعرفون أفكارهم. بل يأخذون ويتأثرون بما يعلنه المجتمع وعادات الناس.

أنظف أماكن في المجتمع هي المستشفيات التي تعنى بعلاج أمراض الجسم، فكذلك يجب أن تكون المستشفيات التي تعالج أمراض المجتمع. أي ما يسمى خطأ بالسجون. إن المستشفى الوسخ العفن يولد أمراضاً في زواره أكثر مما كان فيهم قبل الدخول. ولذلك يعنى الأطباء بتنظيف المستشفيات وكل ما له علاقة بالمرض وغرف العمليات الجراحية خاصة تكون أنظف ما يمكن. وكذلك يجب أن يكون أسلوب معاملة المجرم وكل ما له علاقة بمستشفيات المجتمع.

باختصار، كل ما يقوم به أطباء الجسم في مستشفياتهم فكذلك يجب أن يفعل أطباء المجتمع في مستشفياتهم وأبحاثهم.

ولكن أليس يوجد فرق بين مريض الجسم ومريض المجتمع، إذ المجرم يقدم على الجرم بإرادته ولكن المريض لا يصاب بالمرض بإرادته؟ أقول: هذا غير صحيح.

أولاً، حتى الذي يصاب بمرض في جسمه بإرادته فمع ذلك نرى المستشفيات تعامله بكل احترام ونظافة. وعلى سبيل المثال، انظر إلى الذي يمرض بسبب التدخين، هل يلقيه الأطباء داخل مزبلة ويسبونه ويلعنونه، أم يعاملونه مثله مثل أي مريض آخر؟

ثانياً، من قال أن المجرم فعل بإرادته؟ وما معنى "فعل بإرادته"؟ إن كان المقصود هو أنه لم يكن تحت تأثير السحر الأسود الذي يحركه حيث يشاء أو تحت التنويم المغناطيسي المزعوم فهذا لا شك فيه. ولكن المعنى الحقيقي هو أنه كان مضطراً على فعل ما فعل بسبب أفكاره وظروفه.

فمثلاً، أب عنده عائلة كاملة يعولها، وهو يعمل ثلثي اليوم كل الأسبوع، ومع ذلك لا يجد ما يكفيه لكي يطعم أهله ويعالجهم ويدفع مصاريفهم. أليس هذا "مجبر" على السرقة وقبول الرشوة؟ لا يوجد أمامه إلا أن يقتل أحد أبناءه، أو يعمل أكثر أو يسرق. ولا يستطيع ولا يجوز أن يقتل. وكذلك لا يستطيع أن يعمل أكثر، فإذن هو "مجبر" على السرقة.

ولذلك أجاز الله أكل الميتة عند الضرورة. فلماذا سمّاها "ضرورة"؟ أليس باستطاعته أن لا يأكل ويصبر حتى يأتيه الفرج أو يموت؟ هذا لأنه يريد أن يبقى حياً، فهو مضطر على ارتكاب الجرم، أي أكل الميتة.

وكذلك الذي يعيش في مجتمع يعظم الثروة وباختصار "يجعل الكبر في الجسم". فهذا مضطر أن يرتكب الجرم لكي يشعر بالكبر. هذا بالطبع إذا كان المجتمع يقتل الأنبياء ويمنع علم الكتاب أن ينتشر ككل المجتمعات اليوم بدرجة أو بأخرى.

فذاك "مجبر" بسبب الظروف، وهذا "مجبر" بسبب الأفكار.

ثالثاً، لعل ثمانية أعشار أمراض الجسم المعروفة هي بسبب الناس بوجه أو بآخر. ومع ذلك فالأطباء يعاملون المرضى برحمة وفي أماكن نظيفة محترمة. وهذا هو الأصل عندهم. ولاشك أن مريض الاجتماع يساوي مريض الجسم في أكثر الأحيان، بل في كلها إلا قليلاً لا ينظر إليه، بل لعله غير متحقق إلا نظرياً.

فإذن يجب أن يؤسس كل نظام القضاء بكل أصوله وفروعه ونتائجه على أساس أن المجرم مريض كمريض الجسم تماماً. وهذه بذرة الانطلاق في البناء.

ومجلس الوزراء في المجتمع يجب أن يعالج فعلياً أسباب الجرم حتى يعتبر هذا الفعل "جرم". فمثلاً إذا لم تتوفر المعيشة الميسرة في المجتمع، ولم تنشر فكرة "حياة العلم" بين الناس بكل شؤونها، فلا يمكن للسرقة أن تعتبر جرماً. فيجب معالجة كل الظروف وكل الأفكار التي قد تتزاوج فتولد جرماً اجتماعياً ما. وعندها وعندها فقط يكون الفعل "جرماً" بحق.

وجرائم المجتمع هي التي ذكرتها الوصايا العشر التي في سورة الأنعام. وهذه الآيات الثلاث، ١٥١و١٥٢و١٥٣، هذ بذرة نظام الحكم والاجتماع. وهي النظام الأساسي للحكم والعمل في مجتمع الناس الراقي. فلتدرس جيداً أو لتنشر بين الناس بكل تفاصيلها ومجادلاتها. فهي كل الشريعة. فإن كانت الشريعة هي الشجرة المباركة فالوصايا العشر هي بذرتها.

...-...

(٣٩) "ويعلمك من تأويل الأحاديث" كل أنواع الأحاديث. وبما أنه عبّر رؤيا المنام فهذا يدل على أن رؤيا المنام من حديث النفس. وبالتالي تخضع لنفس أحكام تأويل أي حديث آخر.

ومن هيكل النفس نعلم أن الحديث هو أحد طرق تحقيق الرغبة. وعلى ذلك فكل رؤيا تحقيق لرغبة. فهو يرى ما يريد أن يكون في الواقع، أو لكي يجرب ماذا سيكون الحال لو تحقق أمر ما وما شابه من أنوا ع الرغبات.

ونلاحظ أنه لم يذكر في قصص القرآن العظيم إلا خمس أوجه للرؤيا ومعبّر الرؤيا، وهذه هي الإحاطة التامة. إبراهيم يرى وإسحاق يفسّر. يوسف يرى ويعقوب يفسّر. صاحبي السجن يرون ويوسف يفس. الملك يرى ويوسف يفسّر. محمد يرى والله يفسّر. ومن هذه الملاحظة يمكن استنباط سبعمئة حكمة ولكن نقتصر هنا على ما يهمنا. فنلاحظ أنه دائماً يوجد علاقة شخصية قوية بين صاحب الرؤية ومعبّرها. وهذه من أهم قواعد التأويل. أب وابنه، صاحب وصاحبه، ملك ورسوله. ويكاد يشذ عن هذه القاعدة رؤيا الملك ويوسف المعبر. ولكن هذا مجرد شذوذ ظاهري، إذ حياة يوسف في بيت العزيز، وكون الملك شخصية معروفة عامة يزيد من قوة القاعدة. وبالتالي يمكن أن نقول بقوة: من لا يعرف صاحب الرؤيا بعمق لا يمكن أن يعبّر له رؤيا.

وذلك لأن العقل يرى الرموز التي يعرفها. والرمز عند فلان قد يختلف معناه عن نفس الرمز ولكن عند علان. ثم حال الشخص وظروف حياته وطموحاته، أي تصوره للكمال، لا يمكن أن يحيط المفسّر بعلمها إلا بعلاقة شخصية قوية.

وفي تأويل الرؤيا يعلمنا القرآن أن نحرص على ثمانية أمور : التحذير ، والتعبير، والإيجاز قدر الإمكان، والصدق مهما كلف الأمر، والتوجيه العملي، والمشاورة، والصبر.

والتأويل من الأول. وهو على نفس صيغة "ترجيع" أي أن تنظر في صورة الحديث وملابساته وترجع بها لتصل إلى الجوهر الأول الذي انبعثت منه الرؤيا. فنستطيع من رؤيا أي إنسان أن نستشف القيم التي يحويها تصوره للكمال وكل هيكل نفسه.

وبما أن الله سمّى كتابه أيضاً بالحديث "الله نزل أحسن الحديث" فهذا يحوي سرّ في القرآن العظيم وهو أننا بتأويل القرآن نستطيع أن ندرك من أسرار عقل الله. أي نصل إلى عينه. إلى تصوره للكمال وقيمه. ومن ثم نستطيع أن نجعل قيم الله نفس قيمنا، بل الأحسن أن نقول: أن نجعل قيمنا نفس قيم الله. وبذلك نرى العالم كما يراه. وباتحاد تصورنا للكمال بتصوره للكمال نكون قد صرنا بحق خلفاؤه. وهذا هو سر الأسرار.

فالقرآن رؤيا الرحمن. وجهلة الأحزاب مثل جهلة الملأ الذين قالوا عن القرآن "أضغاث أحلام". والفريق الآخر الذين يحسبون أنهم مهتدون عندما ينفون عن أنفسهم علم تأويل القرآن ويقولون "وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين". ولن يفسر القرآن إلا يوسف.

حياة علماء هذه الأمة هي حياة يوسف. ومن لا يفهم هذا الكلام فليذهب وليبكِ على نفسه. وليقول "لا إله إلا أنت. سبحانك. إني كنت من الظالمين" عسى الله أن يجعل الحوت يقذفه من بطنه المظلم.

إذا تصدى أمامك رجل ويدعي أنه من العلماَء بالدين ودعاة الحق اليقين فاختبره بآية من قصص القرآن وانظر أيهتدي لتأويلها أم يكون من الذين لا يهتدون. فإن لم يفتح له فلا تقعد معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ولا تقعد بعد الذكرى إنك إذاً مثلهم. واصبر على شرحه مهما طال. فإن العالم بالتأويل نبي حي. وإياك وقتل الأنبياء بغير حق. والزمه كما لزم موسى العبد العالم ولكن لا تخالف أمره حتى لا يفرّق الله بينك وبينه.

ابتلوا علماؤكم بتأويل كتاب ربكم. فإن جهلوا فاعلموا أنكم أمام أئمة الكفر إن قالوا "وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين" أو زعموا أن لا أحد يعلم تأويل القرآن.

نفس الله هي عين كتابه. فمن ينظر في الكتاب فليعلم أنه ينظر إلى جوهر الله. فمَن أعظم من العرب. الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. لقد جاَءت رسل ربنا بالحق.

إذا أردت أن تنظر إلى خنزير ملعون فانظر إلى عربي لا يعرف قيمة القرآن، ولا يريد أن يعرف. "الأعراب أشد كفراً ونفاقاً". وإذا أردت أن تنظر إلى الله في جسم إنسان فانظر إلى عالم بتأويل القرآن. "وجعلكم ملوكاً".

...-...

(٤٠) يوجد نوعان من النفوس، نفوس أهل بيت الله : يوسف وَ يونس.

أما يوسف فكان يسكن في الملكوت، ثم صارت له رؤيا معينة يريد أن يحققها، فنزل إلى الجسم، وجاهد وصبر حتى تحققت. والرؤيا هي أن يجلب حكم الملكوت إلى الآفاق. فيوسف مخلص من البداية حتى النهاية. فلاحظ أن يوسف يمر بسبعة منازل : بيت يعقوب، غيبت الجب، بيت العزيز، السجن، مع الملك، العزيز، ثم اجتماع كل أهل بيته.

وأما يونس فكان كذلك يسكن في الملكوت ولكنه لما عرض عليه الله أن ينزل إلى الأرض لكي يقوم بالعمل المقدس وتكبر نفسه، كالأب الذي يرسل ابنه في مهمة ويعلم الأب مصلحة الابن ولكن الابن من تكاسله وإخلاده إلى الراحة يغضب من عرض أبيه ولكن ينصاع لأمره بالرغم من غضبه. "وذا النون إذ ذهب مغاضباً" ذهب من بيت الله إلى الأرض. "فظن أن لن نقدر عليه" كهذا الابن الغاضب الذي عزم على الخروج من البيت ومخالفة أمر أبيه بعد الذهاب إلى ديار الغربة ظناً أن أباه لن يراه ولن يستطيع أن يصل إليه. ولكن بعد أن أصابه سوط العذاب عاد وتاب وتذكر أمر ربه وعمل به. فنلاحظ أن يونس يمر بستة منازل: بيت الله، ركوب البحر، بطن الحوت، العراء المحض، العراء بشجرة اليقطين، الإرسال إلى مئة ألف أو يزيدون.

وكون يوسف مخلص من البداية يجعله مقدم على يونس بدرجة. ولذلك مر يوسف بسبعة منازل ويونس بستة. فهذا هو الفرق بين من يدرك رؤيا الحق ويعمل بلا عودة ونظر إلى الوراء إلى حياة الجهل والموت، وبين من يعرف رؤيا العرش ويقرر أنه يريد أن يستمر في حياة اللعب واللهو والزينة

والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد. فيوسف مدفوع بروح الكتاب، ويونس مدفوع بسوط العذاب. وهكذا نفوس الناس.

أرسل يوسف ليصلح أهله، وأرسل يونس ليصلح الغرباء. وهكذا يوجد رسل إلى أهل الكتاب ويوجد رسل إلى الأميين. ومحمد جمع بين يوسف ويونس حيث يقول له الحق "قل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم". فالذي نزل على محمد هو الحق المهيمن على كل شيء. فقد جاء الكتاب بجوهر كل شيء. الجوهر الأصلي المشترك لكل النفوس، ولذلك فهو يملك القدرة على الارتقاء بكل الناس.

ولاحظ أن يوسف ألقاه إخوته الشياطين في "غيبت الجب" ويونس أراد الفرار من أمر ربه فساهم فكان من المدحضين فألقاه الذين غلبت سهامهم في البحر "فالتقمه الحوت". هذا مكث في ظلمت الجب وهذا مكث في ظلمت بطن الحوت. ولكن كون يوسف فعل أمر العرش من البداية جعل الوحي يأتي لتأييده فوراً ما إن ألقاه الشياطين في الجب. ولكن كون يونس يرغب في التملص من مهمته جعل الحق يعرض عنه حتى نادى في الظلمات أن "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين". فالعناية ليوسف جاءت من الأعلى لكونه يعمل لتحقيق رؤيا الحق. ولكن العناية ليونس لم تأت إلا من الأدنى بحسب قاعدة العدل "الامداد بحسب الاستعداد". فيوسف محسن و "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان" ولكن يونس معرض فعومل بالعدل.

"الله يجتبي إليه من يشاء" هذه ليوسف. "ويهدي إليه من ينيب" هذه ليونس.

الجذر اللاشعوري للغضب هو الغضب الذي ظهر من يونس. أي بسبب مفارقة الملكوت والخروج من الراحة. ولكن من أجل شفاء هذا المرض أنزل الله لنا القرآن لكي نتذكر حياتنا السابقة في بيتنا في العالم الأعلى، كالغريب الذي يحمل معه صور بيته وأهله في الغربة حتى تعينه على استمرار العمل والصبر حتى ينقضي ويتم الأمر المتعالي. وكذلك شرع الله لنا السبت لكي نتذوق أو نتذكر طعم الراحة التامة التي كنا نحياها من قبل، وبالتالي نعمل على خلقها ها هنا على الأرض. ولذلك نزلت التورية التي فيها حكم الله والوصايا الربانية لخلق الملكوت على الأرض. ولذلك نقول "الحمد لله الذي أورثنا الأرض. نتبوأ من الجنة حيث نشاء" فالجنة على الأرض. هذا ما نزلنا له، ولهذا نزل الكتاب.

ولكن لما أراد الحق أن ينزل كتابه ألبسه ثوب الجلال، والشدة، والعذاب والوعيد. حتى لا يسمعه إلا المطهرون، وهم المقربون، أهل البيت، بيت الله الملكوت. وهذا الجلال إما أن يصرف الناس عن الكتاب العزيز إن كانوا من الأنجاس المجرمين، وإما أن يجعلهم يهابوه ويخافوا منه كالسارق الذي يدخل على بيت ليس بيته ولا قرابة له فيه، تراه يخاف ويتعرق وقد يبكي جزعاً وخوفاً ويكون عديم الرحمة في معاملة من يراه أمامه إذا كان من أهل البيت لأنه يعلم أن أمره وكونه سارقاً غريباً سينكشف بسبب هذا الشخص الذي هو من أهل البيت. ولماذا تظن أن الأحزاب يقتلون

الأنبياء؟ لأن الأنبياء سيظهرون للناس أن الأحزاب أنجاس لا علاقة لهم بالكتاب. لا يكشف الجلال إلا أهل الجلال والإكرام.

إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف هم "بسم الله الرحمن الرحيم". وتذكر أنه قال "ومن وراء إسحاق يعقوب" لأن يعقوب رمز الملكوت، وإسحاق رمز الآفاق، والملكوت وراء الآفاق. إذ العلم وراء الجسم. "وزاده بسطة في العلم والجسم". وإبراهيم رمز العلي العظيم نبع الأسماء الحسنى ومجمعها الكلي. ويوسف رمز الأنفس. ولكون يوسف آخر حلقة في الكمال قال آل فرعون "لن يبعث الله من بعده رسولا" وبالطبع لم يقولوا هذا عن علم وتحقيق ولكن عن كيد، إذ لا يريدون أن يأتي الرسل ويدمروا ما كانوا يعرشون، ويرفعوا من كانوا يستضعفون. وهاهم الأحزاب قد قالوا في محمد لكونه الأكمل وجاء بالكتاب الأكمل "لن يبعث الله من بعده رسولا" وقد صدق من قال "ولن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا". وكما أن موسى جاء ليدمر الزعم بأن يوسف آخر المرسلين، فكذلك جاءت الساعة ليظهر موسى ليدمر الزعم بأن محمد آخر المرسلين. "ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب".

"ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض. ونجعلهم أئمة. ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض. ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون".

....انتهى والحمد لله.